أَثَرُ الدَّلالاتِ القُرآنِيَّةِ العَقْلِيةِ في إِثْبَاتِ كَمَالِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ -دِرَاسَةٌ دَعَوِيَّةٌ-

إعداد
د/محمد يونس حسن حسن عيسى
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بكلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر

أَثَرُ الدَّلالاتِ القُرآنِيَّةِ العَقْلِيةِ في إِثْبَاتِ كَمَالِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ
ـ دِرَاسَةٌ دَعَوِيَّةٌ ـ

إعداد محمد يونس حسن حسن عيسى
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية، بكلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،،،

يتكون هذا البحث المعنون بأثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال الذات العلية –دراسة دعوية- من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث.

بينت فيه أن التوحيد وإن كان عن طريق الوحي والسماع إلا أن الإثبات عن طريق العقل والإقناع؛ لوجود كثير من الناس يعتقدون اعتقادا صارما بعدم وجود إله بالمرة لهذا الكون برمته، وأن الكون بما يشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب...إلخ وجد صدفة، والجميع يسير فيه وفق سنن كونية أو طبيعية؛ ومن ثم أنكروا اليوم الآخر بما فيه من بعث وحشر وحساب وميزان وصراط....إلخ، فضلا عن وجود كثيرين زعموا أن مع الله آلهة أخرى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وُجِدَ أناس غرهم المال والسلطان والملك، وأعمتهم النعم التي أسبغ الله بها عليهم فادّعى بعضهم الألوهية من دون الله.

واستشهدت على أن الوحدانية ثبتت عن طريق العقل والإقناع بالتاريخ الإسلامي المفعم بالأنبياء الذين لم يهملوا دور العقل طرفة عين في ترسيخ العقيدة الحقة وإبطال ما عداها من عقائد فاسدة، وتقاليد زائفة، فوثبوا على من زعموا الألوهية بالحجة البالغة؛ لبيان المحجة الواضحة، واتخذوا وسيلة الإقناع ركيزة أساسية في إفحام المدعو المنكر، وبالتالي اعتمدوا على البديهيات العقلية المتعلقة بالكون والإنسان والتي تفضي لا ريب إلى نتائج يقينية فضلا عن الآثار المشرقة والتي لا ينكرها إلا مكابر ومعاند.

وأوصى البحث الدعاة على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم استخدام المنهج العقلي في بيان العقيدة الإسلامية، وبيان الأثر المترتب عليه وخاصة عند مجادلة الملحدين الذين ينكرون وجود الله، والغيبيات المتصلة بالشريعة الإسلامية كاليوم الآخر بما فيه.

The Impact of the Rational Quranic Evidences in Proving the Perfection of the Supreme Essence
-A Da'wah Study-

Prepared by Muhammad Yunus Hasan Hasan Issa
Lecturer in the Department of Da'wah and Islamic Culture, Faculty of Fundamentals of Religion in Cairo, Al-Azhar University

Summary of the Research

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon the most honorable of messengers, our master Muhammad, may God bless him and grant him peace, and upon his family and companions and those who follow them in righteousness until the Day of Judgment. After that,

This research entitled The Impact of the Rational Quranic Evidences in Proving the Perfection of the Supreme Essence -A Da'wah Study- consists of an introduction, a preface, and four chapters.

I explained in it that although monotheism is through revelation and hearing, proof is through reason and persuasion; Because there are many people who firmly believe that there is no god at all for this entire universe, and that the universe, including the sun, moon, stars, mountains, trees, animals, etc., came into existence by chance, and everything in it moves according to cosmic or natural laws; and therefore they denied the Last Day, including resurrection, gathering, accounting, balance, and path, etc., in addition to the existence of many who claimed that there are other gods with God, on the one hand, and on the other hand there were people who were deceived by money, power, and kingship, and were blinded by the blessings that God bestowed upon them, so some of them claimed divinity other than God. I cited as evidence that monotheism was proven through reason and persuasion the Islamic history, which is full of prophets who did not neglect the role of reason for an instant in establishing the true belief and invalidating all other corrupt beliefs and false traditions, so they attacked those who claimed divinity with conclusive evidence; To clarify the clear argument, and they took the means of persuasion as a basic pillar in silencing the denier, and thus they relied on the rational axioms related to the universe and man, which undoubtedly lead to certain results, in addition to the bright effects that no one denies except the stubborn and obstinate. The research recommended that preachers, regardless of their times and places, use the rational approach in clarifying the Islamic faith, and clarifying the resulting effect, especially when arguing with atheists who deny the existence of God, and the unseen matters related to Islamic law, such as the Last Day and what is in it.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،،،،،

لقد أنبأنا الله -سبحانه وتعالى - في كثير من آياته أنه كشف اللثام ورفع الحجاب عن كثير من آيات كتابه المقروء والمنظور على حد سواء والتي تقطع يقينا وبلا شك بوجود خالق قادر مدبر عالم حكيم....إلخ لهذا الكون الفسيح؛ لتأخذ بيد البشرية أجمع منذ التنزيل على مدار الحقب التاريخية المتعاقبة إلى إثبات كمال قدرة الله في رعايته لشئون خلقه، وعنايته بهم، ورحمته لهم، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها؛ ولذا كان البحث في هذا الموضوع الموسوم بـ **"اثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال الذات العلية -دراسة دعوية-"** لإيضاح ذلك.

أولا: **أهمية الدراسة**: تدور أهمية هذا البحث في أمور عدة من أهمها ما يلي:

١. بيان أن التوحيد وإن كان عن طريق الوحي والسماع إلا أن الإثبات عن طريق العقل والإقناع.

٢. بيان أهمية الأساليب المنطقية، والمحاكمات العقلية في إبطال الألوهية الباطلة.

٣. إيضاح الآثار التي خلفتها الدلالات العقلية في الآفاق والأنفس لإثبات طلاقة القدرة الإلهية.

٤. إثبات أن اليوم الآخر آت لا محالة لإثابة المحسن وعقاب المسيء.

ثانيا: **تساؤلات الدراسة**: تحاول الدراسة الإجابة على مجموعة من الأسئلة أهمها ما يلي:

١. ما مفهوم الدلالات العقلية.

٢. ما الفرق بين الدلالات العقلية وآثارها.

٣. ما المجالات التي أثبتت كمال قدرة الذات العلية.

ثالثا: **إشكاليات الدراسة**: تكمن إشكالية الدراسة في أن كثيرين من الناس يعتقدون اعتقادا جازما بعدم وجود إله بالمرة لهذا الكون برمته، وأن الكون بما يشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب...إلخ وجد صدفة، والجميع يسير فيه وفق سنن كونية أو طبيعية؛ ومن ثم أنكروا

اليوم الآخر بما فيه من بعث وحشر وحساب وميزان وصراط...إلخ، فضلا عن وجود كثيرين زعموا أن مع الله آلهة أخرى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وُجِدَ أناس غرهم المال والسلطان والملك، وأعمتهم النعم التي أسبغ الله بها عليهم فادعى بعضهم الألوهية؛ فكان لازما علي أن أبين أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال طلاقة قدرة الذات العلية دون سواها.

رابعا: **أسباب اختيار الموضوع**: دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع ما يلي:

١. وجود العديد من البحوث والأعمال العلمية التي تكلمت عن الأدلة العقلية أو المنهج العقلي في إثبات الأمر الدال عليه دون الإشارة إلى الأثر المترتب على ذلك في بحث مستقل.

٢. بيان الآثار التي خلفتها الدلالات القرآنية العقلية في مجال العقيدة وتقريرها لكمال وطلاقة قدرة الذات العلية.

٣. وجود كثير من الناس ينكرون اليوم الآخر بما يشتمل عليه من بعث وحساب وجنة ونار...إلخ.

خامسا: **الدراسات السابقة**: بعد البحث والتنقيب لم أقف وذلك -على حد علمي- على دراسة بهذا العنوان "أثر الدلالات القرآنية العقلية القرآنية في إثبات كمال الذات العلية –دراسة دعوية" رغم وجود العديد من الأعمال العلمية التي تكلمت عن المنهج العقلي أو الأدلة العقلية في الجانب العقدي كالدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، د/ عبدالكريم نوفان عبيدات، ط: دار النفائس للنشر والتوزيع الأردن، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

سادسا: **منهج البحث**: استخدمت في معالجة مسائل هذا البحث المنهج الاستقرائي[١] وقد مزجتُ بينه وبين المناهج الأخرى كالمنهج

(١) المنهج الاستقرائي: هو الذي ينتقل الذهن فيه من الأمور أو القضايا الجزئية إلى القضايا أو المفاهيم أو التصورات أو المعاني الكلية. انظر: مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث لعبدالفتاح محمد العيسوي وعبد الرحمن محمد العيسوي، ص(١٧)، ط: دار الراتب الجامعية بيروت، بدون رقم للطبعة(١٩٩٦م).

التاريخي[١]، والمنهج الاستنباطي[٢] إذ الفصل بين المناهج العلمية في البحث العلمي من الصعوبة بمكان.

سابعا: **أهداف البحث**: تكمن أهداف البحث في النقاط التالية:

١. إثبات وجود الله أولا بالأدلة العقلية.

٢. إثبات طلاقة القدرة الإلهية من خلال النماذج المنتقاة من دعوة الأنبياء والآيات الكونية والإنسانية.

٣. إبطال الألوهية المزعومة من دون الله تعالى.

٤. إثبات عجز وضعف المعبود من دون الله تعالى.

٥. إثبات اليوم الآخر بما فيه من بعث ونشر وحشر وحساب وثواب وعقاب....إلخ.

ثامنا: **خطة البحث**: يتكون هذا البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة فتشتمل على ما يلي:

- **أهمية الدراسة.**
- **تساؤلات الدراسة.**
- **إشكاليات الدراسة.**
- **أسباب اختيار الموضوع.**
- **الدراسات السابقة.**
- **منهج البحث.**
- **أهداف البحث.**
- **خطة الدراسة.**

التمهيد فيتضمن: التعريف بمفردات عنوان البحث.

(١) المنهج التاريخي: هو الذي نقوم فيه باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار أيا كان نوع هذه الآثار. مناهج البحث العلمي: د. عبدالرحمن بدوي، ص(١٩)، ط: وكالة المطبوعات- الكويت، الطبعة الثالثة(١٩٧٧م).

(٢) المنهج الاستنباطي: هو الذي ينتقل الذهن فيه من الأمور الكلية إلى الأمور أو القضايا الجزئية. انظر: مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث لعبدالفتاح محمد العيسوي وعبد الرحمن محمد العيسوي، ص(١٧) مرجع سابق.

المبحث الأول فهو بعنوان: العقل منزلته ومكانته وحظه في الإسلام، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: منزلة العقل ومكانته وسبل المحافظة عليه.

المطلب الثاني: حظ العقل في الإسلام(الأمر بإعماله، الاجتهاد، القياس، التأويل، شرح القرآن والسنة).

المبحث الثاني فهو بعنوان: أثر الدلالات القرآنية تنزيلا العقلية إقناعا في إفحام المدعو المعاند وإبطال الألوهية المزعومة من خلال دعوة الأنبياء، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم-υ-.

المطلب الثاني: دعوة سيدنا محمد-ρ-.

المبحث الثالث فهو بعنوان: أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال الذات الإلهية من خلال الآفاق والأنفس، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الآفاق.

المطلب الثاني: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الأنفس.

المبحث الرابع: أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال قدرة الله على إيجاد اليوم الآخر.

التمهيد

ويشتمل على التعريف بمفردات عنوان البحث.

تعد مصطلحات عنوان البحث المراد إعداده في أي تخصص من التخصصات الدينية أو الدنيوية بمثابة حجر الأساس في البناء عند تشييد قواعده، وإقامة أركانه، وتسديد جوانبه، فمن خلال المنطوق اللغوي والاصطلاحي لتلك المفردات التي تشكل الهيكل التنظيمي الخارجي للبحث؛ يستطيع القارئ أن يصور في مخيلته صورة مجملة لمضمون وجوهر البحث.

١. التعريف بمصطلح(الأثر).

أ. الأثر في اللغة: تعود كلمة الأثر إلى الجذر اللغوي الثلاثي (أ ث ر) فالألف والثاء والراء أصل في بنية الكلمة، وقد وردت في معاجم اللغة العربية بمعان عدة، منها أن(الأَثَر: بَقِيَّةُ الشَّيْءِ، وَالْجَمْعُ آثَارٌ وأُثور، والتأْثير: إِبْقاءُ الأَثر فِي الشَّيْءِ، وأَثَّرَ فِي الشَّيْءِ: تَرَكَ فِيهِ أَثرا، والآثارُ: الأَعْلام)[١]، (وآثر الشَّيءَ: فَضَّله واختاره، ومنه آثر البقاءَ بجوار والديه، وآثره بسِرِّه: اختصّه به، وآثره على نفسه: قدَّمه واختصَّه بالخير)[٢].

وبناء على ما سبق وبعد استقراء آيات الذكر الحكيم، وأحاديث النبي الكريم يتضح أن الأثر يدور حول ما يلي:

-ما خلّفه الفعل من علامة وغيرها(النتيجة)، ومنه قوله تعالى: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)[٣] أي علامتهم في وجوههم من أثر السجود في صلاتهم[٤].

(١) لسان العرب لابن منظور، حرف: الراء، فصل: الألف، ج(٥/٤) مرجع سابق.
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، ط: عالم الكتب، الطبعة الأولى(١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، حرف: الألف، مادة: أثر، ج(٦١/١).
(٣) سورة الفتح، آية رقم(٢٩).
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج(٢٦١/٢٢ وما بعدها).

- بقية الشيء، ومنه قوله تعالى: (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[١] أَيْ بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ يُؤْثَرُ عَنِ الْأَوَّلِينَ، أَيْ يُسْنَدُ إِلَيْهِمْ، وقيل: خَاصَّةٌ مِنْ عِلْمٍ، وقيل: رِوَايَةٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْأَثَرِ وَهُوَ الرِّوَايَةُ، يُقَالُ: أَثَرْتُ الْحَدِيثَ أَثَرًا وَأَثَارَةً، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْخَبَرِ: أَثَرٌ[٢].

- تفضيل أمر ما، ومنه قوله تعالى: (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[٣] وقوله (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[٤].

- إيثار الغير واختصاصه بالخير، ويؤكد ذلك قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[٥].

- الرواية عن الغير، ومنه قوله تعالى: (إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ)[٦].

- الخُطا إلى المساجد أو سن طريقة خيرا كانت أو شرا، ومنه قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)[٧] أي ما أسلفوا من أعْمَالِهم، ونكتب آثارهم أي من سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كتِبَ له ثوابها، ومن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كتبَ عَليه عقابها، وقد قيل: خطَاهمْ[٨]، وقول النبي-ﷺ-: (يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ)[٩].

(١) سورة الأحقاف، آية رقم(٤).
(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن(تفسير البغوي)، تأليف: محيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي(المتوفى: ٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج(٢٤٩/٧).
(٣) سورة النازعات، آية رقم(٣٨).
(٤) سورة الأعلى، آية رقم(١٦).
(٥) سورة الحشر، آية رقم(٩).
(٦) سورة المدثر، آية رقم(٢٤).
(٧) سورة يس، آية رقم(١٢).
(٨) انظر: معاني القرآن وإعرابه، تأليف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ /١٩٨٨م)، ج(٢٨١/٤).
(٩) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله-ﷺ-، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،

- الأجل أو انقضاء العمر، ومنه قول النبي-ﷺ-: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)(١).

ب. الأثر في الاصطلاح: لقد عرفت كلمة الأثر بتعريفات اصطلاحية كثيرة لا تكاد تخلو من المعاني السالفة الذكر أذكر منها ما يلي:

الأثر هو عبارة عن(حصول ما يدل على وجود الشيء والنتيجة)(٢).

الآثار هي(النتائج المترتبة على أمر من الأمور أو قضية من القضايا سواء أكانت هذه النتائج إيجابية أم سلبية)(٣).

٢. التعريف بمصطلح(الدلائل).

أ. الدلائل في اللغة: إن كلمة(الدّلَالَة تعني الْإِرْشَاد وَمَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظ عِنْد إِطْلَاقه (ج) دَلَائِل ودلالات)(٤).

ب. الدلائل في الاصطلاح: هي (كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول)(٥).

ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، كِتَابُ: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، بَابُ: فَضْلِ كَثْرَةِ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، ج(٤٦٢/١)، ح ر (٦٦٥).

(١) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ: البُيُوعِ، بَابُ: مَنْ أَحَبَّ البَسْطَ فِي الرِّزْقِ، ج(٧٣/٣)، ح ر (٢٠٦٧) مرجع سابق.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، ص(٣٨) مرجع سابق.

المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ)، ج(٦٢/١).

(٣) مستشرقون في علم الآثار، تأليف: محمد الأسعد، ط: الدار العربية للعلوم بيروت، سنة(٢٠١٠م)، ص(٩).

(٤) انظر: المعجم الوسيط، تأليف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، ط: دار الدعوة، بدون رقم للطبعة وتاريخ، باب: الدال، ج(٢٩٤/١).

(٥) التعريفات، تأليف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ط: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص(١٠٤).

٣. التعريف بمصطلح(العقل).

أ. العقل في اللغة: هو: (الْحِجْرُ وَالنُّهَى ضِدُّ الحُمْق، وَالْجَمْعُ عُقولٌ، يُقَالُ: رَجُل عاقِلٌ وَهُوَ الْجَامِعُ لأَمره ورَأْيه، وَقِيلَ: العاقِلُ الَّذِي يَحْبِس نَفْسَهُ ويَرُدُّها عَنْ هَواها، والعَقْلُ: التَّثَبُّت فِي الأُمور، والعَقْلُ: القَلْبُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا لأَنه يَعْقِل صاحبَه عَنِ التَّوَرُّط فِي المَهالِك أَي يَحْبِسه، وَقِيلَ: العَقْلُ هُوَ التَّمْيِيزُ الَّذِي بِهِ يَتَمَيَّزُ الإِنسان مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَيُقَالُ: لِفُلان قَلْبٌ عَقُول، ولِسانٌ سَؤُول، وقَلْبٌ عَقُولٌ فَهِمٌ، والعَقْلُ: الديَة، وعَقَلَ القَتيلَ يَعْقِله عَقْلًا: وَدَاهُ)[١].

ويتضح مما سلف ذكره أن العقل في اللغة يأتي بمعان متعددة كالفؤاد والحجر أي القلب، والحبس، والتثبت في الأمور، والتمييز، والفهم، والجمع، وإعطاء الدية لأقارب المقتول من قبل القاتل.

ب. العقل في الاصطلاح: تدور مادة العقل في الاصطلاح حول معان تبلغ حدا في الكثرة حيث قيل هو: (جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقًا ببدن الإنسان.
وقيل: نور في القلب يعرف الحق والباطل.
وقيل: قوة للنفس الناطقة، وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة، وأن الفاعل في التحقيق هو النفس والعقل آلة لها، بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع)[٢].

وهنا **ندرك** اتفاقا تاما بين تلك التعريفات؛ فالجميع جعل العقل جوهرا روحانيا مجردا عن المادة وليس بآلة يمكن مشاهدتها أو لمسها كأخواته من الآلات الأخرى(القلب، الكبد، الكلى....إلخ)، وأن وقوعه من القلب أقرب إلى الصحيح، وأما الدماغ فهو بمثابة قرص لتخزين المعلومات الناتجة عن العقل؛ لأن المتدبر لآيات القرآن الكريم يدرك ذلك من أول وهلة، حيث ربط الله بينه وبين القلب في كثير من آياته فمن ذلك يقول الله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، حرف: اللام، فصل: العين المهملة، مادة: عقل، ج(٤٥٨/١١، ٤٦٠) مرجع سابق.
(٢) التعريفات للإمام الجرجاني، ص(١٥٤) مرجع سابق.

أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[١]، وقال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[٢]،وقال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)[٣] أي لمن كان له عقل من هذه الأمة[٤].

وأيضا عند إمعان النظر في أحاديث النبي الأمين-ρ- نستشف العلاقة الوثيقة بين كل من القلب والعقل حيث يقول: (أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ)[٥] وَاحْتُجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الرَّأْسِ[٦].

ت. الدلائل العقلية باعتبار التركيب: هي دلالة وجود المسبب على وجود سببه، كدلالة اللفظ على وجود اللافظ[٧].

وعلى هذا يمكن القول بأن المراد من(الدلائل العقلية) في البحث هي: عبارة عن المقدمات التي تعتمد اعتمادا كليا على البديهيات العقلية لفظية كانت أو غير لفظية(كدلالة صوت المتكلم على وجود شخص بالخارج وحياته، وإشارة المرور على الوقوف والحركة) والتي تصل بالإنسان في نهاية المطاف لا محالة إلى نتائج يقينية محتومة يقف الإنسان عاجزا

(١) سورة الأعراف، آية رقم(١٧٩).
(٢) سورة الحج، آية رقم(٤٦).
(٣) سورة ق، جزء من آية رقم(٣٧). ويراجع: البقرة ٧، ١٧٩، ١٩٧، ٢٢٥، ٢٦٩. آل عمران ٧، ١٩٠. المائدة ١٠٠. الأنعام ١١٠. الأعراف ١٠١. التوبة ١١٧. يونس٧٤. يوسف ١١١. الرعد ١٩. إبراهيم ٥٢. الحجر ١٢. الروم ٥٩. ص ٢٩، ٤٣. الزمر ٩، ١٨، ٢١. غافر ٤٥، ٥٤. محمد ٢٤. الطلاق ١٠. وغيرهم الكثير من الآيات التي تشتمل على ألفاظ مرادفة للقلب.
(٤) تفسير الإمام ابن جرير الطبري، ج(٣٧٢/٢٢) مرجع سابق.
(٥) صحيح الإمام البخاري(المتوفى: ٢٥٦هـ)، ط: دار الشعب القاهرة، الطبعة الأولى(١٩٨٧م)، كِتَابُ: الإِيمَانِ، بَابُ: فَضْلُ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، ج(٢٠/١)، ح ر (٥٢).
(٦) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية(١٣٩٢هـ)، كتاب البيوع، بَاب أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ، ج(٢٩/١١).
(٧) انظر: الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، تأليف: ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي(المتوفى: ٨٢٦هـ)، تحقيق: محمد تامر حجازي، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى(١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص(١١٦).

أمامها؛ وبالتالي فلا يسعه إلا التسليم المطلق لعدم استطاعته إنكارها لوضوحها وضوح الشمس في رابعة النهار، فإن كان -أي الرفض والإنكار- فهذا هو الظلم والعدوان والعنت، قال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)(١).

٤. **التعريف بمصطلح(إثبات)**:

أ. الإثبات في اللغة العربية: يقال: (أثبتَ يُثبت، إثباتًا، فهو مُثبِت، والمفعول مُثبَت يقال: أثبت الشَّيءَ: أبقاه وأقرَّه وثبَّته ونفّذه، وأثبت دينه: أقام حجّته عليه، وأثبت معرفته: عرفه حقّ المعرفة، وأثبته شرعًا: حقّقه وأكّد صحّته شرْعًا، وأثبت العودَ في الأرض جعله ثابتا مستقرًّا في مكانه، وأثبت اسمه في الدِّيوان: كتبه)(٢).

ب. الإثبات في الاصطلاح: هو الحكم بثبوت شيء لآخر، ويطلق على الإيجاد، وقد يطلق على العلم تجوزا، يقال: العلم إثبات المعلوم على ما هو به(٣).

٥. **التعريف بالذات العلية**: جاء في الكليات أنها(الْحَقِيقَة الْعُظْمَى وَالْعين القيومية المستلزمة لكل سبوحية قدوسية فِي كل جلال وجمال استلزاما لَا يقبل الانفكاك الْبَتَّةَ)(٤).

هذا..... وبعد البحث والتنقيب عن تلك المفردات من منظور لغوي واصطلاحي أستطيع القول بأن المراد من العنوان إجمالا يكمن في: كشف اللثام عن أثر النتائج التي خلفتها الإرشادات القرآنية العقلية؛ لإيضاح كمال

(١) سورة المؤمنون، آية رقم(٩١).
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، حرف: الثاء، مادة: ثبت، ج(٣١٠/١). ويراجع: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، ط: المكتبة العلمية – بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ج(٨٠/١). وفي الاصطلاح لا يكاد يخرج عما ذكر في اللغة، انظر: التعريفات للإمام الجرجاني، باب: الألف، ص(٩).
(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تأليف: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ص(٣٩).
(٤) المرجع السابق، ص(٤٥٥).

وطلاقة قدرة الذات الإلهية، ودوام استقرارها، وحكمة تصرفها في هذا الكون الشاسع المؤكَدة والمقرَرة بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة، والبراهين الجازمة المثبَتة في كتاب الله المسطور والمنظور.

المبحث الأول

العقل منزلته ومكانته وحظه في الإسلام.

المطلب الأول: منزلة العقل ومكانته وسبل المحافظة عليه.

شاءت إرادة الله -سبحانه وتعالىأن يتبوأ العقل في الإسلام منزلة كبرى، ومكانة سامية، ودرجة عالية، ومرتبة رفيعة، فهو نبراس تلك الحياة، به يرتقي الإنسان في العاجل والآجل إلى أعلى المنازل، وأرفع الدرجات، شريطة اغتنامه كآلة للتفكر والتدبر للوصول إلى مستقيم الطريق، وعمارة الأرض وإصلاحها لا لخرابها وإهلاكها، ونفع البشرية واستقرارها لا تدميرها وفنائها، وفي ذلك يقول ابن قدامة-رحمه الله-: هو (أَكْبَرُ الْمَعَانِي قَدْرًا، وَأَعْظَمُ الْحَوَاسِّ نَفْعًا، فَإِنَّ بِهِ يَتَمَيَّزُ مِنْ الْبَهِيمَةِ، وَيَعْرِفُ بِهِ حَقَائِقَ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَهْتَدِي إلَى مَصَالِحِهِ، وَيَتَّقِي مَا يَضُرُّهُ، وَيَدْخُلُ بِهِ فِي التَّكْلِيفِ، وَهُوَ شَرْطٌ فِي ثُبُوتِ الْوِلَايَاتِ، وَصِحَّةِ التَّصَرُّفَاتِ، وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ)[1].

ومن ثم فهو الذي يتلقى التكاليف الشرعية من خالق البشرية؛ ولذا كان خطاب الله له في كثير من آياته أوضح ما يكون حيث يقول الله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[2] وقال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[3] **ومن خلال القراءة المتأنية في كتاب ربنا وسنة نبينا-ﷺ- نلمس أبرز النقاط التي تبرز مكانة العقل ومنزلته وسبل المحافظة عليه في الشريعة الإسلامية وهي كالتالي:**

(١) المغني، تأليف: أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي(المتوفى: ٦٢٠هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى(١٤٠٥هـ)، ج(٨/ ٣٦٨).
(٢) سورة يوسف، جزء من آية رقم(١٠٩).
(٣) سورة الحج، آية رقم(٤٦). ويراجع: الروم ٩. فاطر ٤٤. غافر ٢١، ٨٢. محمد ١٠. الغاشية ١٧، ٢٠.

١. منّ الله على البشرية وفضلهم على سائر الكائنات بأن وهب لهم عقلا يميزون به الحق من الباطل، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[١]، ومن ثم فإنه من (أَجَلّ الْأَشْيَاء موهبة؛ لأَنَّهُ الْآلَة فِي تَحْصِيل معرفَة الْإِلَه، وَبِه تضبط الْمصَالح، وتلحظ العواقب، وتدرك الغوامض، وَتجمع الْفَضَائِل)[٢].

٢. جعل الله العقل مناط التكليف وبالتالي فلا تكليف على من زال عقله بالمرة خَلقا أو بسبب عارض(الضرب، المرض) أو غاب بأي وسيلة كانت(السُكْر، النوم) علاوة عن الصبي وإن كان مميزا، حيث ثبت عن النبي-ﷺ- أنه قال: "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاَثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يَفِيقْ"[٣]، وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي-رحمه الله-: (إِنَّ مَوْرِدَ التَّكْلِيفِ هُوَ الْعَقْلُ، وَذَلِكَ ثَابِتٌ قَطْعًا بِالِاسْتِقْرَاءِ التَّامِّ؛ حَتَّى إِذَا فُقِدَ ارْتَفَعَ التَّكْلِيفُ، وَعُدَّ فَاقِدُهُ كَالْبَهِيمَةِ الْمُهْمَلَةِ)[٤].

٣. جعل الإسلام العقل ركيزة أساسية يعتمد عليه في ترسيخ أركان العقيدة الرفيعة، وقواعد الشريعة الغراء، والقيم الأخلاقية السامية وفق حدود لا يتجاوزها ودون خلط أو شطح أو اتباع للهوى، فإذا رمق الإنسان بصره قِبل القرآن الكريم يستنتج مدى تفاعله معه في العديد من آياته، ومن

(١) سورة النحل، آية رقم(٧٨). ويراجع: المؤمنون ٧٨. السجدة ٩. الملك ٢٣.
(٢) كتاب الأذكياء، تأليف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، ط: دار الجفاني والجابي ودار ابن حزم، الطبعة الأولى(١٤٢٤هـ)، ص(٢٩).
(٣) السنن الكبرى للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة(٣٠٣هـ)، قدم له: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبدالمنعم شلبي، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠١م)، ج(٢٦٥/٥).
(٤) الموافقات، تأليف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى(١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج(٢٠٩/٣).

ذلك قوله تعالى: (لِقَوْمٍ يَفْقَهُون)[١]، (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢]، (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون)[٣]، (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)[٤]....إلخ، وغيرهم الكثير مع الاختلاف في نهاية الآيات أشرت إلى مظانها في الهامش[٥].

وهذا الارتباط الوطيد بين كل من الشرع والعقل الأمر الذي جعل الإمام الغزالي-رحمه الله- يقول: (اعْلَم أَن الْعقل لن يَهْتَدِي إِلَّا بِالشَّرْعِ وَالشَّرْع لم يتَبَيَّن إِلَّا بِالْعقلِ فالعقل كالأس وَالشَّرْع كالبناء وَلنْ يُغني أس مَا لم يكن بِنَاء وَلنْ يثبت بِنَاء مَا لم يكن أس.

وَأَيْضًا: العقل كالبصر وَالشَّرْع كالشعاع وَلنْ يُغني الْبَصَر مَا لم يكن شُعَاع من خَارج وَلنْ يُغني الشعاع مَا لم يكن بصر.

وَأَيْضًا: العقل كالسراج وَالشَّرْع كالزيت الَّذِي يمده فَمَا لم يكن زَيْت لم يحصل السراج وَمَا لم يكن سراج لم يضئ الزَّيْت، فالشرع عقل من خَارج وَالْعقل شرع من دَاخل وهما متعاضدان بل متحدان)[٦].

٤. عاب الله المعطلين للفؤاد والنُهى ووصفهم بالأنعام بل هم أضل سبيلا؛ لأنهم خلقوا لغاية معلومة، ومهمة محدودة، وهم يأتون بها على أكمل وجه، وأتم حال وفائدة، قال تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)[١].

(١) سورة الأنعام، جزء من آية رقم(٩٨).
(٢) سورة البقرة، جزء من آية رقم(١٦٤). ويراجع: الرعد ٤. النحل ١٢، ٦٧. العنكبوت ٣٥. الروم ٢٤، ٢٨. الجاثية ٥.
(٣) سورة يونس، جزء من آية رقم(٢٤). ويراجع: الرعد ٣. النحل ١١، ٦٩. الروم ٢١. الزمر ٤٢. الجاثية ١٣.
(٤) سورة الأنعام، جزء من آية رقم(١٢٦). ويراجع: النحل ١٣.
(٥) البقرة ١٧١، ١٩٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٦٦، ٢٦٩. آل عمران ٧، ١٩٠. المائدة ٥٨، ١٠٣. الأنعام ٥٠، ٩٥. الأعراف ٢٦، ١٣٠. الأنفال ٢٢، ٥٧، ٦٥. التوبة ٨١، ٨٧، ١٢٦، ١٢٩. يونس ٤٢، ١٠٠. الرعد ١٩. إبراهيم ٢٥، ٥٢. طه ٥٤، ١٢٨. القصص ٤٣، ٤٦، ٥١. العنكبوت ٦٣. يس ٦٨. ص ٢٩، ٤٣. الزمر ٩، ١٨، ٢١، ٢٧، ٤٣. غافر ٥٤. الدخان ٥٨. الحجرات ٤. الحشر ١٣، ١٤. المنافقون ٣، ٧. فضلا عما ورد في وسط الآيات.
(٦) انظر: معارج القدس في مدراج معرفة النفس، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(المتوفى: ٥٠٥هـ)، ط: دار الآفاق الجديدة –بيروت، الطبعة الثانية(١٩٧٥م)، ص(٥٧).

٥. إن أشر الناس خَلقا الذين يحجبون أسماعهم عن سماع الحق وأبصارهم عن رؤيته، وعقولهم عن العمل في دلائله، فقال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)(٢).

٦. رفع الله قدر العلم والعلماء ذوي العقول الرشيدة، والقلوب النابضة بالحق وجعلهم في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وملائكته الكرام وذلك عند الإدلاء بشهادتهم على وجوده تعالى وما كان ذلك إلا بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، والأدلة الدامغة، حيث قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٣).

٧. كفل الإسلام للإنسان حرية التعبير، وإبداء الرأي القويم الموثَّق بالأدلة الصحيحة في الأمور الدينية والطبيعية على حد سواء: وما كان ذلك في الأمم السابقة حيث إن القارئ لتاريخها يدرك مدى الخلاف الواقع بين رجال الدين(الرهبان والقساوسة) الذين كانوا يحتكرون على أنفسهم تفسير الكتاب المقدس فلا يحق لأحد أن يقرأ أو يقول فيه باجتهاده أو يخالف تعاليمه وإن كانت تخالف صراحة الحقائق الكونية والبديهيات العقلية.

ولذا عندما جاء "كوبر نيكوس" بنظريته الكونية وأثبت دوران الأرض وأن الشمس مركز الكون وهذا لا ريب يخالف ما في كتبهم(الأرض مركز الكون وأن الأجرام السماوية تدور حولها) فقاموا بإنشاء ما يسمى بمحاكم التفتيش التي لم ينج منها؛ لأنه كان قسيسًا، ولكنه أفلت من عقوبة الكنيسة التي حرمت كتابه، واعتبرته من وساوس الشياطين؛ لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل.

وجاء بعده "برونو" بتأكيد نفس النظرية، فسجنته الكنيسة فأصر على رأيه فأحرقته، ثم جاء "جاليليو" فأيد النظرية فلقي في السجن العذاب والمهانة، وكاد أن يلقى نفس مصير "برونو" لولا أنه خشي على حياته؛ فأعلن ارتداده عن أفكاره، وركع ذليلاً أمام رئيس المحكمة، وراح يلعن ما توصل إليه، ويصفه بالإلحاد، وتعهد بالإبلاغ عن كل ملحد يوسوس له

(١) سورة الفرقان، الآيتان رقم(٤٣، ٤٤).
(٢) سورة الأنفال، آية رقم(٢٢).
(٣) سورة آل عمران، آية رقم(١٨).

الشيطان بتأييد مثل هذه الأبحاث المضللة، وما كان ذلك إلا ليكونوا عبرة للذين يعملون عقولهم(١).

٨. ذم الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- التقليد الأعمى والتمسك بالعادات الفاسدة، والعقائد الباطلة الموروثة من الآباء ومن على شاكلتهم الذين يتبعون الأوهام والأباطيل والخرافات والخزعبلات والهوى والطغاة دون تأمل وتبصر في الموجودات الدالة على الحقيقة المطلقة(وجود الله وقدرته)، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)(٢).

٩. إن الذي لا يعمل عقله ويستخدمه كآلة للتفكير والتثبت من الأمور يتيه في ظلمات الكفر والشرك عاجلا، وآجلا يكون من أصحاب السعير، ويقع تحت طائلة العذاب الأليم، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)(٣).

١٠. لم يسوّ الله في الدارين بين ذوي العقول السديدة والأفكار النيرة الذين يخشون ربهم بالغيب، ويرجون رحمته، ويخافون سوء العذاب....إلخ، والذين اجترحوا السيئات، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام....إلخ، حيث قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)(٤).

(١) انظر: قصة الحضارة، تأليف: ول ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت(المتوفى: ١٩٨١م)، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، ط: دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر(١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج(٣٠/٢٨٠، ٣٠٠). وانظر: مذاهب فكرية معاصرة، تأليف: محمد بن قطب بن إبراهيم، ط: دار الشروق، الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص(٤٧، ٥٠).

(٢) سورة البقرة، الآيتان رقم(١٧٠، ١٧١).

(٣) سورة يونس، آية رقم(١٠٠). ويراجع الملك ١٠.

(٤) سورة الزمر، الآيتان رقم(٨، ٩).

١١. حض الإسلام على تدبر وفهم الآيات القرآنية المحكمة عامة، والمتشابهة خاصة، والتي تحتاج إلى طول نفَس، ومزيد بحث، وعمق فهم، ولا يخلص إلى تأويلها إلا الراسخون في العلم، وهذا مما يدل على أهمية العقل ومكانته في فهم النصوص القرآنية، حيث يقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)[١].

١٢. كرم الإسلام العقل تكرمة عدها بعض مَن لا علم له ولا معرفة امتهانًا واحتقارا، وعدها ذوو العقول والألباب لا تقل درجة أو رفعة عن غيرها؛ تلكم المكرمة أنه حد له حدودًا لا يتجاوزها، ورسم له مراسم لا يتعداها، لا لشيء إلا لأنه سيضل فيها ويتيه، ولا لشيء إلا لأنها فوق مداركه وفوق قدراته وطاقاته، ومن الخير له كل الخير أن يقف دونها لا يخوض فيها، وفي هذا ولا شك تكريم له وأي تكريم[٢]، وذلك كعدم الخوض في الذات الإلهية، ومما يؤكد ذلك ما ورد عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ-ﷺ-: "تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ"[٣].

(١) سورة آل عمران، آية رقم(٧).
(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، تأليف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٩٥١/ ٥ وتاريخ ١٤٠٦/٨/٥، الطبعة الأولى(١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج(٧٢٩/٢).
(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: أبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة، بدون رقم للطبعة(١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج(٨١/١)، ح ر (٢٦٠) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ الْوَازِعُ بْنُ نَافِعٍ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ. وفي فيض القدير روايات خمس أثبت المؤلف في شرحه والتعليق عليهم أن تعدد طرقها يجبر ضعفها ويكسبها قوة. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير
المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، ط: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة الأولى(١٣٥٦م)، حرف: التاء، ج(٣/ ٢٦٢ وما بعدها)، ح ر (٣٣٤٥، ٣٣٤٦، ٣٣٤٧، ٣٣٤٨، ٣٣٤٩).

١٣. ومما يزيد العقل إجلالا ورفعة أنه من الضرورات الخمس(النفس، الدين، العقل، النسل، المال) التي أمر الإسلام بالحفاظ عليها، ولا يجوز للإنسان إتلافها أو التعرض إليها بالإهلاك أو التعدي عليها بالإيذاء بأي حال من الأحوال، ولكي يضمن سلامة العقل حرم كل ما يخامره، قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[١].

١٤. ذم الإسلام الأفعال السيئة القبيحة والمذمومة في الوقت نفسه لعدم موافقتها العقل السليم، قال تعالى: (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)[٢].

١٥. قضى الإسلام في الرجل يُضرَبُ حتى يذهب عقله عن آخره أو يَغنَّ أو يَبَحَّ فلا يفهم الدية كاملة[٣]؛ لأنه بمثابة الميزان لأعضاء الإنسان وأفعاله وكالعود بالنسبة للظل فإن استقام استقامت وإن اعوج اعوجت.

١٦. لقد أمر الشارع الحكيم بصيانة العقل، وإحاطته بسياج آمن حتى لا يخلص إليه ما يفسده من أفكار هدامة، وأمور لا أصل لها من الصحة؛ فيختل توازن الإنسان في أقواله وأفعاله وبالتالي فلا يدري عواقب أقواله، وآثار أفعاله، فضلًا عما يزيله بالكلية وإن كانتا سواء، ومن ثم حرم شرب الخمر والمخدرات وسائر المسكرات، قال تعالى: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)[٤].

١٧. وصف الله القلوب أي العقول التي لا تنتفع بآيات الله المقروءة ولا تهتدي بما أودعه الله في الكون الواسع إلى وجود خالق قادر مدبر حكيم، وتعتقد اعتقادا صارما أنها مصونة من الضلالات، ومستورة من وصول الأباطيل إليها؛ لأنها في أكنة أو غلف؛ بأنها مختومة، وتارة أخرى بأنها مريضة، وتارة ثالثة بأنها قاسية، وتارة رابعة بأن عليها رانا أو طُبِعَ

(١) سورة المائدة، آية رقم(٩٠).
(٢) سورة الأنبياء، آية رقم(٦٧).
(٣) المصنف الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى(٢١١هـ)، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، ط: دار التأصيل –القاهرة، الطبعة الأولى(١٤٣٦هـ/٢٠١٥م)، كِتَابُ: الْعُقُولِ، بَابُ: الْمُوضِحَةِ، ج(٥٢٣/٧)، ح ر (١٨٣٩٤) إسناده صحيح، مرجع سابق.
(٤) سورة المائدة، جزء من آية رقم(٩٠).

عليها، ومن ذلك قول الله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(١).

١٨. دائما ما كان النبي-ﷺ- يعمل على تنمية عقول الصحابة الكرام عن طريق عملية العصف الذهني بإلقاء الأسئلة ثم ينتظر الإجابة عليها، فقد ثبت في الصحيح عَنِ ابْنِ عُمَرَ-رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ-: "إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ"(٢).

(١) سورة البقرة، آية رقم(٧). ويراجع: البقرة ١٠، ٧٤. النساء ١٥٥. المائدة ٥٢. الأنعام ٢٥، ٤٣. الأنفال ٤٩. التوبة ١٢٥. النحل ١٠٨. الإسراء ٤٦. الكهف ٥٧. الحج ٥٣. النور ٥٠. الأحزاب ١٢، ٣٢، ٦٠. فصلت ٥. محمد ١٦، ٢٠، ٢٩. المدثر ٣١. المطففين ١٤.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ: العِلْمِ، بَابُ: قَوْلِ المُحَدِّثِ: حَدَّثنا، أَوْ أَخبَرَنا، وَأَنْبَأَنَا، ج(٢٣/١)، ح ر (٦١) مرجع سابق.

المطلب الثاني

حظ العقل في الإسلام ويدور هذا المطلب حول الآتي:

أولا: **الأمر بإعماله**.

ثانيا: **الاجتهاد**.

ثالثا: **القياس**.

رابعا: **تأويل النص**.

خامسا: **تفسير القرآن وشرح السنة**.

يدرك الإنسان من أول وهلة مدى قيمة العقل، ونصيبه في كل قضية من قضايا الإسلام(عقدية أو تشريعية أو أخلاقية) المطروحة على الساحة الدعوية، ورد فيها نص أم لم يرد، فإن كانت الأولى فإعمال الذهن بالنظر والتأمل والتدبر تفسيرا وشرحا وتأويلا إن احتاج الأمر ذلك لا تأصيلا وتأسيسا، قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[1]، وإن كانت الأخرى فالاجتهاد واستنباط الأحكام والقياس وفق الضوابط الشرعية المنوطة بذلك، قال تعالى: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)[2].

فـ "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة أو كيف يُسْتَرَاب فيه"[3]، والذي يعنينا هنا أن الإسلام لم يكن شعاره قط: اعتقد وأنت أعمى أو آمن دون تحريك العقل، بل هو الذي يتلقف التكاليف الشرعية من الخالق، وأمره بعرضها عليه إن كانت في حدود نطاقه وإلا فيجب التسليم المطلق دون تدخل منه(الأمور التعبدية)، وعبر النقاط التالية يتضح حظ العقل من الشريعة الإسلامية:

(١) سورة ص، آية رقم(٢٩).
(٢) سورة النساء، جزء من آية رقم(٨٣).
(٣) إحياء علوم الدين، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(المتوفى: ٥٠٥هـ)، ط: دار المعرفة – بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ج(٨٣/١).

أولا: **الأمر بإعماله**: إذا حدق الإنسان ذو العقل الحصيف بصره قبل بصيرته في مصادر الشريعة الإسلامية(الكتاب والسنة) يستنتج أنها تدعو البشر أجمع إلى إعمال العقل، وتحثهم على إثارة الذهن بالتفكر والتدبر في كتاب الله المسطور نظما وبيانا وبلاغة وفصاحة وإعجازا، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[1]، علاوة على النظر والتنقيب والتحليل بالبحث في المنظور من الآفاق والأنفس، ومما يعزز ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦).....الآيات)[2].

ذكرت في المطلب المنصرم أن الإسلام كرم العقل، وحث على تقليب الأمور من خلاله، وما منع البتّة من النظر والتأمل، أو أمر بالتوقف والتحجر؛ ومن ثم أودع العديد من دلائله، وفصّل الكثير من عجائبه في ثنايا كتابه المسطور والمنظور التي تبعث العقل بكافة الطرق على التفكر في المكتوب والمنظور كي يصل الإنسان إلى الإيمان الحقيقي والكامل في نفس الوقت، ومما يؤكد ذلك ويعضده أن النبي-ﷺ- قال: "يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[3]"[1].

(١) سورة النساء، آية رقم(٨٢).
(٢) سور الأنعام، الآيات رقم(٩٦، ٩٩). ويراجع: البقرة ١٦٤. آل عمران ١٩٠، ١٩١. الأنعام ١١. يونس ١٠١. الرعد ٢، ٣، ٤. الحج ٦٣، ٦٤، ٦٥. النور ٤٣، ٤٤، ٤٥. الفرقان ٤٥ إلى ٥٠. النمل ٦٩. العنكبوت ٢٠. الروم ٤٢. لقمان ٢٩، ٣٠، ٣١. فاطر ٢٧، ٢٨. الزمر ٢١. الملك ٣. وغيرهم.
(٣) سورة آل عمران، آية رقم(١٩٠).

ومن هنا فإن أصحاب الأذهان المنيرة يجدون –أي كتاب الله المقروء والمنظور- مفعمَين بالأدلة القاطعة، والبراهين المشرقة الصرفة التي تتدفق من بين جنباتهما الدلائل الدالة على قدرة الله اللامتناهية، وهذا ما سأتحدث عنه في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

ثانيا: **الاجتهاد**: لقد ترك الإسلام مجالا واسعا للاجتهاد واستنباط الأحكام فيما ليس به نص شرعي على وجه الخصوص من قرآن أو سنة أو إجماع أو كونه قياسا بحيث إذا عرضته على تلك النصوص وجدت له أصلا يتكئ عليه أو دليلا يتفق معه والعلة(المصالح المرسلة)[٢]، ومما يؤكد ذلك ويعضده قول الله تعالى: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)[٣].

وأيضا عندما أراد النبي-ﷺ- إرسال سيدنا معاذ-τ- إلى اليمن لم يمنعه من إعمال عقله في استنتاج واستخلاص ما هو مطلوب، بل أقره على القول برأيه فيما عرض عليه من قضاء دون تقصير أو إهمال إن لم يجد لذلك إجابة في كتاب الله أو في سنة رسوله صراحة أو إشارة فَقَالَ: "كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ-ﷺ-، قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ-ﷺ-، وَلاَ فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلاَ آلُو فَضَرَبَ

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج(٣٨٦/٢ وما بعدها)، ح ر (٦٢٠) إسناده صحيح.

(٢) وهي: ما لم يشهد لها بالاعتبار ولا بالإبطال نص معين. المحصول، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة(١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج(١٦٣/٦).

(٣) سورة النساء، جزء من آية رقم(٨٣).

رَسُولُ اللهِ-ﷺ- صَدْرَهُ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ"(١) هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أعلن النبي-ﷺ- صراحة أن المجتهد عند إصابة الحق له أجران، وعند الخطأ له أجر واحد، حيث ثبت في الصحيح أنه-ρ- قال: "إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْر"(٢)؛ ومن ثم ورد العديد من الأمثلة على مدار الحقب التاريخية المتتالية التي تؤكد صحة العمل بالاستدلال المرسل والتي منها على سبيل المثال لا الحصر.

"١. جمع القرآن على عهد الصحابة-رضوان الله عنهم-.
٢. الاتفاق على حد شار الخمر.
٣. اجتماع الناس على قراءة واحدة في قيام رمضان.
٤. إذا خيف عند خلع غير المستحق وإقامة المستحق أن تقع فتنة وما لا يصلح فالمصلحة في الترك....إلخ"(٣).

ثالثا: **القياس**: يقصد به "رد فرع إلى أصل بعلة جامعة بينهما"(٤)، أو "أَنْ يُحْكَمَ لِلشَّيْءِ عَلَى نَظِيرِهِ الْمُشَارِكِ لَهُ فِي عِلَّتِهِ الْمُوجِبَةِ لِحُكْمِهِ"(١)

(١) سنن أبي داود، تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني(المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ط: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، كِتَاب: الْأَقْضِيَةِ، بَابُ: اجْتِهَادِ الرَّأْيِ فِي الْقَضَاءِ، ج(٤٤٣/٥ وما بعدها)، ح ر (٣٥٩٢).

(٢) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ: الِاعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ: أَجْرِ الحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، ج(١٣٢/٩)، ح ر (٧٣٥٢).

(٣) انظر: الاعتصام، تأليف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي(المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ج(٦١٢/٩، ٦٢٧).

(٤) العدة في أصول الفقه، تأليف : القاضي أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء(المتوفى : ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه : د أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض - جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، ط : بدون، الطبعة الثانية(١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج(١٧٤/١).

وهو نتاج الاجتهاد أيضا وقد ثبت أن النبي-ρ- قاس في قضاء الحج والعمرة عن الرجل الفاني الذي بلغ من الكبر عتيا؛ وبالتالي لا يستطيع الحج ولا العمرة، وأن يثبت على الراحلة على الدَين؛ لأنهما يشتركان في العلة(القضاء)، وذلك عندما "جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا، لاَ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَم"(٢)، وفي رواية لابن ماجه قَالَ-ρ-: "نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكِ دَيْنٌ قَضَيْتِهِ"(٣).

فقد تكون القضية المطروحة على الساحة الدعوية بلا دليل تستند عليه صراحة في الحل أو الحرمة كـ(الأفيون، الحشيش، البانجو، الويسكي، النبيذ، الترامادول، الاستروكس....إلخ)؛ وبالتالي فإن الإنسان-أي المجتهد- يجب عليه أن ينظر في النصوص الشرعية كي يستنتج من خلالها ما يتفق معها والعلة للبت في تلك القضية بكل حسم وحزم؛ ومن هنا فإن الله حرم ما سلف ذكره قياسا على الخمر لما فيها ما فيه من تغطية وحجب وغياب للعقل عن الوعي، فقد ثبت في الصحيح أن "الخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ"(٤)، وأيضا: "كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ"(٥).

(١) الفصول في الأصول، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، ط: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثانية(١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ج(٩/٤).

(٢) صحيح الإمام البخاري، كتاب: جزاء الصيد المتفرع من كِتَاب: الحَجِّ، بَابُ حَجِّ المَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ، ج(١٦٣/٢)، ح ر (١٥١٣).

(٣) سنن ابن ماجه (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م)، أَبْوَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ الْحَجِّ عَنْ الْحَيِّ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ، ج(١٥١/٤)، ح ر (٢٩٠٩) إسناده صحيح.

(٤) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ التَفْسِيرِ، بَابُ قَوْلِهِ: إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، ج(٦٧/٦)، ح ر (٤٦١٩). راجع هذه القضية في: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى الفراء، ج(١٣٤٦/٤ وما بعدها) مرجع سابق، والمستصفى في علم الأصول، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج(٤١٥/١).

(٥) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ الأَشْرِبَةِ، بَابُ: الخَمْرُ مِنَ العَسَلِ، وَهُوَ البِتْعُ، ج(٧٠/١)، ح ر (٢٤٢).

رابعا: **تأويل النص**: لا يفهم من تأويل النص في الإسلام ليّ الإنسان له وحمله على غير مراده أو هواه، وإنما يكون ذلك إذا كان النص يوهم التناقض والتعارض مع آخر أو لانتظام السياق كما ورد في حديث سيدنا حُذَيْفَةَ-τ- قَالَ: "صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ-ﷺ- ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا....."[(١)]، قوله: فقلت: يصلي بها في ركعة معناه: ظننت أنه يسلم بها فيقسمها على ركعتين، وأراد بالركعة الصلاة بكمالها وهي ركعتان، ولا بد من هذا التأويل فينتظم الكلام بعده، وعلى هذا فقوله: ثم مضى معناه: قرأ معظمها بحيث غلب على ظني أنه لا يركع الركعة الأولى إلا في آخر البقرة؛ فحينئذ قلت: يركع الركعة الأولى بها[(٢)].

وقد يأتي التأويل بمعنى: الشرح وكشف غوامض الأمور بالتفسير والبيان وإيضاح المعنى المقصود، وهذا ما سأتحدث عنه في العنصر التالي.

خامسا: **تفسير القرآن وشرح السنة**: قد يكون النص القرآني من المحكم الذي لا يُخفى معناه عن العامة ناهيك عن الخاصة من الوهلة الأولى أو المشكل الذي لا يعلم تأويله(مراده) إلا الله، والراسخون في العلم يوقنون أنه من عند الله سبحانه وتعالى، ويؤمنون به كما ورد، فضلا عن تفسيره وبيان المراد منه قدر الوسع والطاقة.

فمن الأول قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[(٣)]، حيث روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ-τ-

(١) صحيح الإمام مسلم، كِتَابُ: صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ: اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، ج(٥٣٦/١)، ح ر (٧٧٢) مرجع سابق.
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، ج(٦١/٦).
(٣) سورة الأنعام، آية رقم (١٥١).

(مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هِيَ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" إِلَى آخِرِ الثَّلَاثِ آيَاتٍ)[1].

وقال-τ- في تفسيرها: ("قُلْ" يَا مُحَمَّد لمَالِك بن عَوْف وَأَصْحَابه "تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" فِي الْكتاب الَّذِي أنزل عليّ "أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً" أَوله أَن لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا من الْأَوْثَان "وبالوالدين إِحْسَاناً" بَرّاً بهما "وَلاَ تقتلُوا أَوْلاَدَكُمْ" بناتكم "مِّنْ إمْلاَقٍ" مَخَافَة الذل والفقر "نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" يَعْنِي أَوْلَادكُم "وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِش" الزِّنَا "مَا ظَهَرَ مِنْهَا" يَعْنِي زنا الظَّاهِر "وَمَا بَطَنَ" يَعْنِي زنا السِّرّ وَهِي المخالة "وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفس الَّتِي حَرَّمَ الله" قَتلهَا "إِلاَّ بِالْحَقّ" بِالْعَدْلِ يَعْنِي بالقود وَالرَّجم والارتداد)[2].

ومن الثاني قوله تعالى: (الم، المص، الر، طسم، طس، حم، عسق....إلخ)[3]، ففي تأويلها أو تفسيرها وشرحها أقوال تبلغ حدا في الكثرة أسوق منها ما يلي:

١. أنها من الأمور التي استأثرها الله في علم الغيب عنده فلا يعلمها إلا هو.

٢. وقيل: هي اسم لأسماء السور.

٣. وقيل: هي أسماء وصفات لله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، وأسماء للرسول كذلك.

(١) المستدرك على الصحيحين، تأليف: أبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى(١٤١١ه/١٩٩٠م)، ج(٣١٦/٢) ح ر (٣١٣٨) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وقال الإمام الذهبي: صحيح.

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - (المتوفى: ٦٨هـ)، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، ط: دار الكتب العلمية – لبنان، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ص(١٢٢).

(٣) يراجع الآية الأولى من السور الآتية: البقرة، آل عمران، الأعراف، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، يس، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، ن.

٤. وقيل: إن الله لفت أنظارهم إلى أن القرآن يتكون من تلك الحروف الهجائية التي يتكلمون بها وينظمون من خلالها أشعارهم ذات الفصاحة والبلاغة والسحر والبيان ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا رغم استعانتهم واستغاثتهم بمعبوداتهم المزعومة والباطلة في ذات الوقت وبهت الذي كفر.

٥. وقيل: إنها أسماء للملائكة....إلخ(١).

ومن أمثلة شروح السنة، الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي-ρ-: "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا" معنى وجود حلاوة الإيمان هو: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات فيما يرضى الله تعالى ورسوله-ﷺ-، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، رغبة في نعيم الآخرة، الذى لا يبيد ولا يفنى، ومحبة العبد لخالقه هي التزام طاعته، والانتهاء عن معاصيه، وكذلك محبة رسول الله هي التزام شريعته، واتباع طاعته"(٢).

(١) انظر إلى تلك الأقوال وغيرها في: التحرير والتنوير، تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(المتوفى: ١٣٩٣هـ)، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر(١٩٨٤هـ)، ج(٢٠٦/١، ٢١٨).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، تأليف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة الثانية(١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، ج(٦٦/١ وما بعدها).

المبحث الثاني

أثر الدلالات القرآنية تنزيلا العقلية إقناعا في إفحام المدعو المعاند وإبطال الألوهية المزعومة من خلال دعوة الأنبياء.

إن التاريخ الإسلامي مهتم بالأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده تترا كلما هلك نبي خلفه نبي وذلك خلال الحقب التاريخية المتوالية وعندما دعوا أقوامهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، القادر المقتدر، الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، المتصف بكل صفات الجلال والكمال بكل ما تحمله الكلمات من معان؛ لم يعتمدوا على النقل بقدر اعتمادهم على العقل في إجلاء كمال تلك الصفات، وبيان طلاقة قدرة الذات العلية، وعجز ما سواها من آلهة مزعومة وباطلة؛ لأن "الله سبحانه ركب العقول في عباده؛ ليعرفوا بها صدقه، وصدق رسله، ويعرفوه بها، ويعرفوا كماله، وصفاته، وعظمته، وجلاله، وربوبيته، وتوحيده، وأنه الإله الحق وما سواه باطل"(١)، وسأكتفي بذكر أنموذجين من دعوة الأنبياء، وهما كالتالي:

المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم-ʊ-.

إن الأنبياء-عليهم السلام- لم يهملوا دور العقل طرفة عين في ترسيخ العقيدة الحقة وإبطال ما عداها من عقائد فاسدة، وتقاليد زائفة، ولكنهم وثبوا على من زعموا الألوهية بالحجة البالغة؛ لبيان المحجة الواضحة، واتخذوا وسيلة الإقناع ركيزة أساسية في إفحام المدعو؛ وبالتالي اعتمدوا على البديهيات العقلية والتي تفضي لا ريب إلى نتائج يقينية فضلا عن الآثار المشرقة والتي لا ينكرها إلا مكابر ومعاند.

ومن هنا سلك سيدنا إبراهيم-ʊ- عند مجادلته للملك الذي أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة حتى أغراه ملكه وجاهه وسلطانه في ادعاء الألوهية من دون الله سبيل الإقناع والاعتماد على الأمور المنطقية مع الإشارة إلى طلاقة القدرة الإلهية في الأمر المحال عقلا وعجز ما عداها؛

(١) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ط: دار العاصمة-الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ)، ج(١٢٣٦/٤).

وبالتالي تترك أثرا في نفوس المدعوين لا يحيد عنه إلا كل ختار كفور، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(١).

ومن خلال قراءة متأنية في كلام المفسرين تبين أن سيدنا إبراهيم-ט- عندما دخل على الملك وامتنع عن السجود له، قال له الملك: من ربك؟ قال سيدنا إبراهيم-ט-: ربي الذي يحيي ويميت، فقال الملك: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، أنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يطعمون شيئا ولا يسقون، حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحييا، وتركت اثنين فماتا.

ولكن هذا أمر له حقيقة ومجاز، قصد سيدنا إبراهيم-ט- الحقيقة، ففزع نمرود إلى المجاز، وموه به على قومه، فسلم له سيدنا إبراهيم-ט- تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال، وجاءه بأمر لا مجاز فيه)(٢).

وذلك عندما رأى سيدنا إبراهيم خبث الملك في تلبيس الحق بالباطل وتمويه الناس لإضلالهم وإحجامهم عن رؤية الحق فقال له: ("فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق" حسبما تقتضيه مشيئتُه "فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب" إن كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى، لم يلتفِتْ -ט- إلى إبطال مقالةِ اللعين إيذاناً بأن بطلانها من الجلاءِ والظهورِ بحيث لا يكاد يخفى على أحد، وأن التصديَ لإبطالها من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالاً للتمويه والتلبيس "فَبُهِتَ الذى كَفَرَ" أي فغلب إبراهيمُ الكافر وأسكته)(٣).

(١) سورة البقرة، آية رقم(٢٥٨). ويراجع: البقرة ٢٥٩، ٢٦٠. فإنهما يؤكدان قدرة الله في إحياء الموتى.

(٢) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ)، (٣٤٦/١).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تأليف: أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ للطبعة ورقم، ج(٢٥٢/١).

وما سلف ذكره من أقوال المفسرين يعد من (حسن الِاسْتِدْلَال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة الَّتِي تَسْتَلْزِم وجوده وَكَمَال قدرته ومشيئته وَعلمه ووحدانيته من الْإِحْيَاء والإماتة المشهودين اللَّذين لَا يقدر عَلَيْهِمَا إِلَّا الله وَحده، وإتيانه تَعَالَى بالشمس من الْمشرق لَا يقدر أحد سواهُ على ذَلِك، وَهَذَا برهَان لَا يقبل الْمُعَارضَة بِوَجْه، وَإِنَّمَا لَبسَ عَدو الله وأوهم الْحَاضِرين أَنه قَادر من الْإِحْيَاء والإماتة على مَا هُوَ مماثل لمقدور الرب تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيم: فَإِن كَانَ الْأَمر كَمَا زعمت فأرني قدرتك على الْإِتْيَان بالشمس من الْمغرب لتَكون مماثلة لقدرة الله على الْإِتْيَان بهَا من الْمشرق، وهَذَا من أحسن مَا يكون من المناظرة.

وَالدَّلِيل الثَّانِي مكمل لِمَعْنى الدَّلِيل الأول ومبين لَهُ ومقرر لتضمن الدَّلِيلَيْنِ أفعال الرب الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى وحدانيته وانفراده بالربوبية والألوهية كَمَا لَا تقدر أنت وَلَا غير الله على مثلهَا، وَلما علم عَدو الله صِحَة ذَلِك وأن من هَذَا شَأْنه على كل شَيْء قدير لَا يعجزه شَيْء وَلَا يستصعب عَلَيْهِ مُرَاد خَافَ أَن يَقُول لإِبْرَاهِيم: فسل رَبك أَن يَأْتِي بهَا من مغْربهَا، فيفعل ذَلِك، فَيظْهر لأتباعه بطلَان دَعْوَاهُ وَكذبه وأنه لَا يصلح للربوبية فبهت وأمسك)[1].

وما كان سيدنا إبراهيم-عليه السلام- مع أبيه وقومه بأفضل حال من الملك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام المنحوتة من الحجارة، ناهيك عن الكواكب والنجوم والتي لا تنفع نفسها فضلا عن غيرها؛ ومن ثم ظل يوضح لهم أن تلك الآلهة وإن كانت قادرة على إيصال الخير إلى الآخر كما هو حال الملك لم يحسن عبادته فمن باب الأولى من كان هذا صفته(العجز وعدم القدرة بكل ما تحمله الكلمة من معان) لا يتأتى بأي حال من الأحوال أن يكون إلها في يوم من الأيام، وقد أوضح الله ذلك في كتابه بقوله: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)[2].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ج(٢/٢٠٥).

(٢) سورة مريم، الآيتان رقم(٤١، ٤٢).

فقد دلت تلك الآيات وغيرها[١] على أن المعبود بحق ينبغي أن يتوفر فيه(استحقاق الوصف بالسمع والبصر على الكمال دون نقصان فيه، وكذلك القول في القدرة على الضّرّ والنفع، وإذا رجع العبد إلى التحقيق علم أن كلّ الخلق لا تصلح قدرةُ واحد منهم للإبداع والإحداث، فمن علّق قلبه بمخلوق، أو توهّم شظية منه من النفي والإثبات فقد ضاهى عبدة الأصنام)[٢].

وورد وصف الأوثان في تلك الآية بـ (صِفَاتٍ ثَلَاثَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قَادِحَةٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْعِبَادَةَ غَايَةُ التَّعْظِيمِ فَلَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِنْعَامِ وَهُوَ الْإِلَهُ الَّذِي مِنْهُ أُصُولُ النِّعَمِ وَفُرُوعُهَا.

وَثَانِيهَا: أَنَّهَا إِذَا لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تُبْصِرْ وَلَمْ تُمَيِّزْ مَنْ يُطِيعُهَا عَمَّنْ يَعْصِيهَا فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي عِبَادَتِهَا، وَهَذَا يُنَبِّهُكَ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ حَتَّى يَكُونَ الْعَبْدُ آمِنًا مِنْ وُقُوعِ الْغَلَطِ لِلْمَعْبُودِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّ الدُّعَاءَ مُخُّ الْعِبَادَةِ فَالْوَثَنُ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ دُعَاءَ الدَّاعِي فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ فِي عِبَادَتِهِ، وَإِذَا كَانَتْ الْأَوْثَانُ لَا تُبْصِرُ بِتَقَرُّبِ مَنْ يَقْتَرِبُ إِلَيْهَا فَأَيُّ مَنْفَعَةٍ فِي ذَلِكَ التَّقَرُّبِ.

وَرَابِعُهَا: إِذَا كَانَتْ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ فَلَا يُرْجَى مِنْهَا مَنْفَعَةٌ وَلَا يُخَافُ مِنْ ضَرَرِهَا فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي عِبَادَتِهَا.

وَخَامِسُهَا: إِذَا كَانَتْ لَا تَحْفَظُ أَنْفُسَهَا عَنِ الْكَسْرِ وَالْإِفْسَادِ عَلَى مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام- أَنَّهُ كَسَّرَهَا وَجَعَلَهَا جُذَاذًا فَأَيُّ رَجَاءٍ لِلْغَيْرِ فِيهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَابَ الْوَثَنَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: لَا يَسْمَعُ، وَثَانِيهَا: لَا يُبْصِرُ، وَثَالِثُهَا: لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: بَلِ الْإِلَهِيَّةُ لَيْسَتْ إِلَّا لِرَبِّي فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَيُبْصِرُ، وَيَقْضِي الْحَوَائِجَ)[٣].

(١) يراجع: الأنبياء ٥١، ٧٠. الشعراء ٦٩، ٨١. هذه الآيات تبين موقف سيدنا إبراهيم مع قومه وآلهتهم المتعددة.

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري، تأليف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ، ج(٤٣١/٢).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، : دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة(١٤٢٠هـ)، ج(٥٤٢/٢١).

وصفوة القول: أن الإله الحق يجب أن يكون على علم كامل بكل ما يدور في هذا الكون برمته وإن كان مثقال حبة من خردل، فيجب أن يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في دياجير الليل؛ كي لا يستطيع أحد أن يفلت من العقاب عاجلا أو آجلا وإن استطاع أن يفلت في تلك الحياة من القوانين الوضعية ولم يكن هذا متوفرا في غير ذات الله، ومما يؤكد ذلك ويعضده قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(١)، وقول النبي-ρ- في الإجابة عن الإحسان: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)(٢).

المطلب الثاني: دعوة سيدنا محمد-ﷺ-.

إن الشريعة الإسلامية مشحونة بالدلالات القرآنية العقلية التي استخدمها النبي-ﷺ- في مجادلة الكافرين ومحاورة المشركين بمكة، واليهود والنصارى بالمدينة(٣)، وأوضح آثار تلك الدلالات والتي تتمثل في إثبات كل كمال يليق بذات الله الذي ينبغي أن يعبد دون سواه من الآلهة المختلقة والمصنوعة من الذهب والفضة والخشب والحجارة والعجوة....إلخ، وذلك عن طريق عدة أساليب منطقية بيانها كالآتي:

(١) سورة المجادلة، آية رقم(٧). ويراجع: البقرة ١٢٧، ١٣٧، آل عمران ٣٥، النساء ٥٨، ١٣٤، ١٤٨، المائدة ٧٦، الأنعام ٣، ١٣، ١١٥، الأنفال ٦١، يونس ٦٥، يوسف ٣٤، الإسراء ١، الأنبياء ٤، طه ٧، الفرقان ٦، الشعراء ٢٢٠، النمل ٢٥، العنكبوت ٥، ٦٠، غافر ٢٠، ٥٦، فصلت ٣٦، الشورى ١١، الدخان ٦، الإنسان ٢، وغيرهم.

(٢) صحيح الإمام البخاري، كِتَابُ: الإِيمَانِ، بَابُ: سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ-ρ- عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، ج(٢٧/١)، ح ر(٥٠).

(٣) وقد تطرقت لعقيدة اليهود والنصارى بإسهاب في رسالة الماجستير الخاصة بي الموسومة بـ "جهود الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في نقد عقائد أهل الكتاب والرد على شبهاتهم من خلال تفسيره -التحرير والتنوير-"، الفصل الثاني المعنون بـ "جهود الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في نقد عقائد أهل الكتاب من خلال تفسيره -التحرير والتنوير- الألوهية أنموذجا" من ص١٦٧ إلى ص٢٨١، إشراف: أ.د/ حسن عبدالرؤوف محمد البدوي، أ.د/ عبدالله محي عزب، أ.د/ محمد عباس المغني.

١. طرح الأسئلة التي تتعلق بهذه الآلهة المصطنعة على عابديها؛ وذلك فيما يلي:

أ. عدم قدرتها على السمع والبصر والكلام والبطش والحركة، وذلك في قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ)[١].

ب. كمال ضعفها عن كشف الضر عن المؤمنين بها، وعدم قدرتها على إسباغ النعم عليهم ظاهرة وباطنة، ويؤكد ذلك قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ)[٢] أي أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى مَنْعِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ تلك الآية، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِقْرَارِ بِوُجُودِ الْإِلَهِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ الرَّحِيمِ، وَثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرّ[٣].

ت. عجزها عن الخلق وإن كان المخلوق حقيرا، وإظهار نقصها بعدم وجود شركة مع الله في السماء فضلا عن إيضاح كمال الصفات الإلهية والعناية الربانية بخلقه، فقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[٤] أي قل يا أيها الرسول لهم: أخبروني عن شركائكم هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فأَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ، هل خلقوا بحرا أو جبالا أو حيوانا، أو جمادا؟

(١) سورة الأعراف، الآيتان رقم(١٩٤، ١٩٥). ويراجع الأعراف ١٤٨. مريم ٤٢. الشعراء ٧٢

(٢) سورة الزمر، آية رقم(٣٨). ويراجع: المائدة ٧٦، الأعراف ١٩٢، ١٩٧، فاطر ١٤، الأحقاف ٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(٤٥٥/٢٦) مرجع سابق.

(٤) سورة فاطر، الآيتان رقم(٤٠، ٤١). ويراجع: الأحقاف ٤.

سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء، هو الله تعالى، أَمْ لشركائكم شِرْكٌة فِي السَّمَاوَاتِ في خلقها وتدبيرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة، فإذا لم يخلقوا شيئا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرتهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدا؛ ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالا وتعظيما، ومحبة وتكريما، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين، وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته وحلمه وكرمه[١].

ث. عدم قدرتها على البعث والنشر والحشر والحساب والثواب والعقاب، قال تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)[٢] مَعْنَى نِسْبَتِهَا إِلَى الْأَرْضِ الْإِيذَانُ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ الْآلِهَةَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَرْضِيَّةٌ وَسَمَاوِيَّةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ آلِهَةٌ مِنْ جِنْسِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَنْحُوتَةً مِنْ بَعْضِ الْحِجَارَةِ أَوْ مَعْمُولَةً مِنْ بَعْضِ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ.

وَالنُّكْتَةُ فِي هُمْ يُنْشِرُونَ مَعْنَى الْخُصُوصِيَّةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْشَارِ إِلَّا هُمْ وَحْدَهُمْ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالتَّجْهِيلِ، يَعْنِي إِذَا كَانُوا غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يُحْيُوا وَيُمِيتُوا وَيَضُرُّوا وَيَنْفَعُوا فَأَيُّ عَقْلٍ يُجَوِّزُ اتِّخَاذَهُمْ آلِهَةً[٣].

٢. تحدى الله هذه الآلهة أن يخلقوا شيئا وإن كان حقيرا شريطة أن يرى بالعين المجردة؛ لإثبات ألوهيتهم، فلم يقدروا رغم قلة المطلوب وتفاهة المعروض، وفي ذلك يقول الله تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص(٦٩١ وما بعدها).
(٢) سورة الأنبياء، الآية رقم(٢١).
(٣) انظر: مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(١٢٧/٢٢) مرجع سابق.

فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[١].

٣. إدراج هذه الآلهة ضمن التحدي في أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أقصر سورة منه فعجزوا ولم يستطيعوا ذلك، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)[٢].

٤. التصريح بعاقبة هؤلاء العابدين والمعبودين على حد سواء، وأن كلا منهما وقود للنار، ولو كانوا آلهة كما يدّعون ما وردوها ولكن ثبت عكس ذلك حيث قال تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)[٣] أي أنتم أيها المشركون، وما تعبدون من دون الله واردو جهنم، ولو كان ما تعبدون من دون الله آلهة ما وردوها، بل كانت تمنع من أراد أن يوردكموها إذ كنتم لها في الدنيا عابدين، ولكنها إذ كانت لا نفع عندها لأنفسها ولا دفع ضر عنها، فهي من أن يكون ذلك عندها لغيرها أبعد، ومن كان كذلك، كان بيَّنا بُعْدَه من الألوهية، وأن الإله هو الذي يقدر على ما يشاء ولا يقدر عليه شيء، فأما من كان مقدورا عليه فغير جائز أن يكون إلها[٤].

٥. طرح الأسئلة التي تتعلق بالإله الحق لبيان كل كمال يليق بذاته المقدسة، وتنزيهه عن كل نقص اتصف به مخلوق، وذلك على النحو الآتي:

أ. لفت الأنظار للتفكر في مخلوقات أعظم خلقا من الإنسان، قال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ

(١) سورة الحج، الآيتان رقم(٧٣، ٧٤).
(٢) سورة البقرة، الآيتان رقم(٢٣، ٢٤).
(٣) سورة الأنبياء، الآيات رقم(٩٨، ١٠٠). وردت هذه العناصر الأربعة مختصرة في مقال لفضيلة أ.د/ بكر زكي عوض، في مجلة منبر الإسلام، السنة ٦٤، العدد ١١، ذو العقدة ١٤٢٦هـ، ديسمبر ٢٠٠٥م، ص(٨٨، ٩٠).
(٤) تفسير الإمام ابن جرير الطبري، ج(٥٣٧/١٨) مرجع سابق.

حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(١).

بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي اختص بأن خلق السموات وَالْأَرْض، وَجَعَلَ السَّمَاءَ مَكَانًا لِلْمَاءِ، وَالْأَرْضَ لِلنَّبَاتِ، وَذَكَرَ أَعْظَمَ النِّعَمِ وَهِيَ الْحَدَائِقُ ذَاتُ الْبَهْجَةِ، وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِنْبَاتَ فِي الْحَدَائِقِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّه تَعَالَى، لِأَنَّ أَحَدَنَا لَوْ قَدَرَ عَلَيْهِ لَمَا احْتَاجَ إِلَى غَرْسٍ وَمُصَابَرَةٍ عَلَى ظُهُورِ الثَّمَرَةِ وَإِذَا كَانَ تَعَالَى هُوَ الْمُخْتَصُّ بِهَذَا الْإِنْعَامِ وَجَبَ أَنْ يُخَصَّ بِالْعِبَادَةِ(٢).

وَلِقَطْعِ شُبْهَةِ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ الْمُنْبِتَ لِلشَّجَرِ الَّذِي فِيهِ رِزْقُنَا هُوَ الْمَاءُ اغْتِرَارًا بِالسَّبَبِ فَبُودِرُوا بِالتَّذْكِيرِ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَسْبَابَ وَهُوَ خَالِقُ الْمُسَبَّبَاتِ بِإِزَالَةِ الْمَوَانِعِ وَالْعَوَارِضِ الْعَارِضَةِ لِتَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ وَبِتَوْفِيرِ الْقُوَى الْحَاصِلَةِ فِي الْأَسْبَابِ، وَتَقْدِيرِ الْمَقَادِيرِ الْمُنَاسِبَةِ لِلِانْتِفَاعِ بِالْأَسْبَابِ، فَقَدْ يُنْزِلُ الْمَاءَ بِإِفْرَاطٍ فَيَجْرُفُ الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ أَوْ يَقْتُلُهُمَا، وَلِذَلِكَ جَمَعَ بَين قَوْله: وَأَنْزَلَ، وَقَوله: فَأَنْبَتْنا، تَنْبِيهًا عَلَى إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ.

وَنُونُ الْجمع فِي فَأَنْبَتْنا الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ، وَمِنْ لَطَائِفِهِ هُنَا التَّنْصِيصُ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ إِسْنَادُ الْإِنْبَاتِ إِلَيْهِ لِئَلَّا يَنْصَرِفَ ضَمِيرُ الْغَائِبِ إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ بِالْمُنْبِتِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي خَلَقَ الْأَسْبَابَ أَلْيَقُ بِمَقَامِ التَّوْبِيخِ عَلَى عَدَمِ رِعَايَتِهِمْ نِعَمَهُ(٣).

وهل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير؟ أم الله الذي (جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا) يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب (وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا) أي: جعل في خلال الأرض أنهارا ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم، (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) أي: جبالا ترسيها وتثبتها لئلا تميد وتكون أوتادا لها لئلا تضطرب، (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ) البحر المالح والبحر العذب، (حَاجِزًا) يمنع من اختلاطهما

(١) سورة النمل، الآيات رقم(٦٠، ٦١). ويراجع: البقر ٢١، ٢٢. غافر٥٧. نوح ١٥، ١٦. الطور ٣٥، ٣٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(٥٦٣/٢٤) مرجع سابق.
(٣) التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ج(٤٠/١٧) مرجع سابق.

فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما بل جعل بينهما حاجزا من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ) فعل ذلك حتى يعدل به الله ويشرك به معه[١].

ب. نبه على أن الكون برمته يسير بنظام دقيق، ووفق قوانين محكمة لا يحيد عنها قيد أنملة مما يؤكد وحدانيته إذ لو كان هناك أكثر من إله لاختل نظام الكون بأسره، قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[٢] أَيْ خَرَجَتَا عَنْ نِظَامهمَا الْمُشَاهَد لِوُجُودِ التَّمَانُع بَيْنهمْ عَلَى وَفْق الْعَادَة عِنْد تَعَدُّد الْحَاكِم مِنْ التَّمَانُع فِي الشَّيْء وَعَدَم الِاتِّفَاق عَلَيْهِ[٣].

فَلَا جَرَمَ دَلَّتْ مُشَاهَدَةُ دَوَامِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض على انتظامهما فِي مُتَعَدِّدِ الْعُصُورِ وَالْأَحْوَالِ عَلَى أَنَّ إِلَهَهَا وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ[٤].

ت. بيّن أن الإنسان إذا أصابته فاقة أو حلت به جائحة اجتاحت ماله أو مصيبة لجأ إلى الله من أول وهلة، قال تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)[٥] أي: هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم

(١) تفسير السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص(٦٠٧) مرجع سابق.
(٢) سورة الأنبياء، الآية رقم(٢٢). ويراجع: المؤمنون ٩١، ٩٢.
(٣) تفسير الجلالين المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ط: دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص (٤٢٢).
(٤) التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ج(٤٠/١٧) مرجع سابق.
(٥) سورة النمل، الآية رقم(٦٢)

الضر دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته[١].

وبعد هذا العرض الموجز للآثار التي خلفتها الأساليب المنطقية والإشارات العقلية في دعوتي سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد وغيرهما[٢] من الأنبياء-عليهم الصلوات والسلام- على مدار الأزمنة والأمكنة والتي نصت على كل كمال يليق بذات الله وأبطلت ما سواه من آلهة فاسدة ببيان عدم استطاعتها عن نفع نفسها أو دفع الضر عنها ناهيك عن غيرها، انتقل إلى الحديث عن الكون والإنسان.

(١) تفسير السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ص(٦٠٨) مرجع سابق.

(٢) كسيدنا نوح-ט- يراجع: يونس ٧١، نوح ١١، ٢٠. وسيدنا موسى-ט- يراجع: الأعراف ١٤٨، طه من ٤٩ إلى ٥٦، والآيتان رقم ٨٨، ٨٩. الشعراء ٢٣، ٢٨.

المبحث الثالث: أثر الدلالات القرآنية العقلية

في إثبات كمال الذات الإلهية من خلال الآفاق والأنفس.

إن الله ركب في قلب الإنسان العقل والذي يتطلع دائما وأبدا إلى الوصول للمعرفة الحقة، والوقوف على ماهية الأشياء وكنهها قدر استطاعته وحسب ما توفر له من آليات البحث على مدى الدهر والزمان؛ ولذا أودع الله العديد من الحقائق المنوطة بالكون والإنسان ومن على شاكلتهم سواء وقف الإنسان عليه أم لم يقف في قوالب لفظية دقيقة، وعبارات حوارية موجزة تثير الدهشة عند تلاوتها؛ لأن كلماتها لا تتعدى في بعض الأحيان عدد أصابع اليد الواحدة دون سرد لما تحويه من أسرار علمية هائلة؛ لتوافق العقل البشري وقت نزولها، ولا تصطدم بالعلوم التطبيقية والتجريبية وقت اكتشافها.

ومن ثم حث على السير في مناكب الأرض بالبحث والنظر في خبايا هذا الكون فقال: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)[1]؛ لبيان طلاقة القدرة الإلهية اللامتناهية، وإقامة الحجة البالغة على أن العقيدة الإسلامية وإن قامت عن طريق الوحي والسماع إلا أن الإثبات لا محالة قائم عن طريق العقل والإقناع، فضلا عن الشريعة والمجالات الأخرى.

المطلب الأول: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الآفاق.

إن الوقوف على حقيقة هذا الكون وكنه ما يشتمل عليه من سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وشمس وقمر لا شك يجريان، وليل ونهار يتعاقبان (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[2]، ونجوم وكواكب سيارة، وبحار وأنهار ذاتا أمواج سامقة، وجبال شامخة ذات ألوان متعددة....إلخ من الصعوبة بمكان لضآلة علم الإنسان وذلك مصداقا لقوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[3].

(١) سورة يونس، آية رقم(١٠١).
(٢) سورة يس، آية رقم(٤٠).
(٣) سورة الإسراء، جزء من آية رقم(٨٥).

ورغم هذا لم يمنع الله-I- العباد من السباحة بمخيلتهم، والعلماء على اختلاف أمكنتهم وأعصارهم بنظرياتهم الأولية، وأبحاثهم التطبيقية كل حسب ما توفر له من آليات حين البحث في ملكوت الله ليقفوا على الأسرار الطبيعية الطائلة، والحقائق العلمية العظيمة التي تثبت وتؤكد كمال طلاقة قدرة الإله اللامتناهية، حيث قال تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[1] وسأكتفي بذكر نموذجين فقط من الآيات الكونية وهما في ذات الوقت دلالات عقلية على سبيل المثال لا الحصر وهما كالتالي:

١. النموذج الأول: التمدد الكوني.

الحق-I- أشار إلى تلك الحقيقة الكونية منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان وإن كان الاكتشاف حديثا حيث يقول تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[2]، فإذا تأمل الإنسان تلك الكلمات الإلهية وفكر في بعض ما تحمله في طياتها من نظم بلاغي ونسق بياني عجيب جاء على غير العادة حيث إن(الْأَصْل تَقْدِيمُ الْعَامِلِ عَلَى الْمَعْمُولِ وَالْفِعْلُ هُوَ الْعَامِلُ، فَالْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى الْفِعْلِ وَلَوْ قَالَ: وَبَنَيْنَا السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، كَانَ أَوْجَزَ؟ نَقُولُ: الصَّانِعُ قَبْلَ الصُّنْعِ عِنْدَ النَّاظِرِ فِي الْمَعْرِفَةِ، فَلَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ إثْبَاتُ الْعِلْمِ بِالصَّانِعِ، قُدِّمَ الدَّلِيلُ فَقَالَ وَالسَّمَاءَ الْمُزَيَّنَةَ الَّتِي لَا تَشُكُّونَ فِيهَا بَنَيْنَاهَا فَاعْرِفُونَا بِهَا إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَنَا.

وقَالَ: بَنَيْناها وَلَمْ يَقُلْ بَنَيْتُهَا أَوْ بَنَاهَا اللَّهُ؟؛ لأن قَوْلهُ بَنَيْنا أَدَلُّ عَلَى عَدَمِ الشَّرِيكِ فِي التَّصَرُّفِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَقَوْلهُ بَنَيْتُهَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَشْرِيكٌ، وَتَمَامُ التَّقْرِيرِ هُوَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: بَنَيْناها لَا يُورِثُ إِيهَامًا بِأَنَّ الْآلِهَةَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا هِيَ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ فِي بَنَيْناها لِأَنَّ تِلْكَ إِمَّا أَصْنَامٌ مَنْحُوتَةٌ وَإِمَّا كَوَاكِبُ جَعَلُوا الْأَصْنَامَ عَلَى صُوَرِهَا وَطَبَائِعِهَا، فَأَمَّا الْأَصْنَامُ الْمَنْحُوتَةُ فَلَا يَشُكُّونَ أَنَّهَا مَا بَنَتْ مِنَ السَّمَاءِ شَيْئًا، وَأَمَّا الْكَوَاكِبُ فَهِيَ فِي

(١) سورة آل عمران، الآيات رقم(١٨٩، ١٩١). ويراجع: يونس ١٠١.
(٢) سورة الذاريات، آية رقم(٤٧). ويراجع: البقرة ١٦٤. النمل ٦٠.

السَّمَاءِ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهَا فَلَا تَكُونُ هِيَ بَانِيَتَهَا، وَإِنَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّمَا بُنِيَتْ لَهَا وَجُعِلَتْ أَمَاكِنُهَا، فَلَمَّا لَمْ يُتَوَهَّمْ مَا قَالُوا قَالَ بَنَيْنَا نَحْنُ، وَنَحْنُ غَيْرُ مَا يَقُولُونَ وَيَدَعُونَهُ فَلَا يَصْلُحُونَ لَنَا شُرَكَاءَ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ غَيْرُ السَّمَاءِ وَدُونَ السَّمَاءِ فِي الْمَرْتَبَةِ فَلَا يَكُونُ خَالِقَ السَّمَاءِ وَبَانِيَهَا فَإِذَنْ عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ جَمْعُ التَّعْظِيمِ وَأَفَادَ النَّصُّ عَظَمَتَهُ، فَالْعَظَمَةُ أَنْفَى لِلشَّرِيكِ)[1] أقر بأن كلاما كهذا لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه منذ النزول لا يكون إلا من رب قادر حكيم.

فضلا عما ترشد إليه على المدى البعيد من إبداع في تكوين أجزاء هذا الكون الواسع؛ لأن (قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ مِنَ السَّعَةِ أَيْ أَوْسَعْنَاهَا بِحَيْثُ صَارَتِ الْأَرْضُ وَمَا يُحِيطُ بِهَا مِنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاءِ وَسَعَتِهَا كَحَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ، وَالْبِنَاءُ الْوَاسِعُ الْفَضَاءِ عَجِيبٌ فَإِنَّ الْقُبَّةَ الْوَاسِعَةَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَنَّاؤونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى إِقَامَةِ آلَةٍ يَصِحُّ بِهَا اسْتِدَارَتُهَا وَيَثْبُتُ بِهَا تَمَاسُكُ أَجْزَائِهَا إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ)[2].

وقيل: (إِنَّا لَقادِرُونَ على أن نزيد في تلك السعة)[3] ومن هنا يقف الإنسان تائها ومشدوها أمام الاكتشافات العلمية الفلكية الحديثة التي تؤكد هذه الزيادة الفعلية الدائمة، وذلك عن طريق الابتعاد بين الأجرام السماوية المستمر بسرعة تفوق الخيال والتصور البشري منذ النشأة الأولى وحتى نهاية العالم، كما أن الاكتشافات العلمية الحديثة تثبت أن مصطلح الواسع (عِنْدَ إِجْرَائِهِ عَلَى الذَّاتِ يُفِيدُ كَمَالَ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ: الْوُجُودِ، وَالْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ[4])[5].

إن الكتب العلمية العصرية التي عنيت بالعلوم الطبيعية والكشوفات الفلكية يمكن أن توضح تقرير هذه الحقيقة العلمية التي تؤكد كمال طلاقة القدرة الإلهية خلال النقاط التالية:

(١) انظر: مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(١٨٧/٢٨) مرجع سابق.
(٢) المرجع السابق، ج(١٨٨/٢٨).
(٣) تفسير الإمام القشيري، ج(٤٦٨/٣) مرجع سابق.
(٤) سورة البقرة، جزء من آية رقم(١١٥).
(٥) التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ج(١٦/٢٧) مرجع سابق.

أولا: الوفرة في عدد السدائم[١] والمجرات[٢] والتي منها يتكون البناء السماوي ناهيك عن الكواكب والأجرام داخل السديم أو المجرة الواحدة حيث أكدت المراصد الفلكية الحديثة (أن الأجرام السماوية لا يحصيها العد ولا الحساب، فهناك مثلا ملايين السدم والمجرات، وفي كل سديم أو مجرة ملايين النجوم، إن لم يكن بالفعل في السديم فبالمجرة، أي أن كتلة السديم صالحة أن يتكون منها ملايين النجوم)[٣].

ثانيا: بُعد المسافات بين تلك المجرات حيث (بينت الدراسات وعمليات الرصد في العصر الحديث أن المجرات تنتشر في الفضاء وفي كل الاتجاهات، ويبتعد بعضها عن بعض بمسافات كبيرة جداً قدرت بنحو مليوني سنة ضوئية[٤] في المتوسط، ويدل ذلك على الاتساع اللانهائي لهذا الكون وحجمه الهائل الذي لا يمكن تصوره بمقاييسنا المعتادة)[٥].

ثالثاً: التوسع الدائم للسماء الناجم عن ابتعاد المجرة عن أختها فضلا عن ابتعاد الأجرام السماوية بداخلها وهذا ما (كشفه العلم في حقيقة فلكية مدهشة... وهي أننا إذا حللنا طيف نجم مضيء آخذ في الابتعاد في الفضاء

(١) السدائم: جمع سديم وهو عبارة عن غيمة سوداء تتكون من الأجرام السماوية والغازات الشديدة الحرارة التي تدور حول نفسها فتظهر وكأنها سحابة رقيقة، ضباب رقيق. معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، حرف: السين، مادة: سدم، ج(١٠٥١/٢).

(٢) المجرات هي بمثابة القارات الكونية التي تنتشر في أجزاء الفضاء متفرقة، والمحتوية على حشود من الأجرام السماوية كالنجوم والكواكب والسدم وغيرها، وتنتشر في مجموعات متعددة هي قوام السماوات. هذا خلق الله، المؤلف: د/ جمال الدين الفندي، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد: ٢٤، السنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص (١٣).

(٣) الإسلام في عصر العلم، تأليف أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ط: دار الكتب الحديثة – مصر-، بدون رقم للطبعة(١٩٧٨)، ص (٣٦٩). وينظر: الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، المؤلف: د/ محمد منصور حسب النبي، ط: دار الفكر العربي- القاهرة– مصر- بدون رقم للطبعة(١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص (٢٨١).

(٤) السنة الضوئية هي: المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة بسرعته التي تبلغ ٣٠٠ ألف متر في الثانية الواحدة. هذا خلق الله، د/ جمال الدين الفندي، ص (١٣) مرجع سابق.

(٥) الكون في فكر الإنسان قديماً وحديثاً، المؤلف د: أحمد مدحت إسلام، ط: دار الفكر العربي بالقاهرة- الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص (٨٦). وينظر: الإسلام في عصر العلم، تأليف أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ص (٣٨٢ وما بعدها). الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، المؤلف: د/ محمد منصور حسب النبي، ص (٢٨١).

الكوني وقسنا سرعة تنقله عن غيره، وبعد عمليات رياضية دقيقة ومعقدة وطويلة تمكن العلماء من أن يقرروا ابتعاد النجوم عن بعضها.. وسرعة الابتعاد تستند إلى هذا الانتقال.. فإذا درسنا المجرات البعيدة تبين لنا أمر يدهشنا كل الدهشة، وهو أن هذه المجرات تبدو آخذ في الابتعاد عنا، مندفعة في الفضاء بسرعة هائلة قد تبلغ ١٤٠٠٠ ميلا في الثانية الواحدة.. ذلك معناه أن هذه الكون آخذ في التمدد والانتشار والاتساع بسرعة هائلة)[١].

رابعاً: ما زال العثور على المزيد من المجرات التي تحتوي على ملايين الأجرام مستمرا حتى الآونة الأخيرة مما يدل على أن حقيقة التمدد الكوني لا تتوقف عند ما سلف ذكره من وفرة المجرات وعظم نجومها وكواكبها، ولا بعد المسافات بين هذه وتلك، ولا سرعة حركتها في التباعد، وإنما تنجلي في أن (عملية ميلاد النجوم والمجرات في الكون متجددة ومستمرة، وعليه فالكون يجب أن يتمدد ويتسع بقوة، ولذا كان التعبير القرآني "لَمُوسِعُونَ" بلام التأكيد لتنطق الحقيقة القرآنية في عصر العلم بلا حاجة إلى صعوبة تفسير أو اجتهاد)[٢].

هذا... وبعد ذكر ما سبق من حقائق علمية تتصل ببناء السماء والذي خالف كل مقاييس البناء المعهود لدينا في هذه الحياة(المرصوص الذي يشد بعضه بعضا عن طريق تلاحم اللبنات بمادة لاصقة) ولكن أجزاء هذا البناء عبارة عن نجوم وكواكب سيارة ومصابيح تسبح في الفضاء الخارجي بسرعة لا تخطر ببال أحد والذي يربط بينها ما يسمى بقانون الجاذبية العام وهذا يجعل الإنسان بعد ما شحب لونه، وأربدت ملامحه، يصرخ بصوت شجي هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟ قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٣].

(١) انظر: هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم، د/عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط: تهامة -جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ص (٣١).
(٢) المرجع السابق، ص(٣٤).
(٣) سورة غافر، آية رقم(٥٧). ويراجع: فصلت ٥٣.

٢. النموذج الثاني: سنة الله في إنزال المطر.

عندما يأمل الإنسان آيات المطر يدرك أن نزول الماء من السنن الإلهية المتجددة طوال العام على أرجاء المعمورة بأسرها وإن اختلفت الأمكنة، وسأقتصر في البحث على تلك الظاهرة الإلهية قبل أن تكون كونية من خلال **النشأة والتكوين فقط**.

فأقول: إن نزول الماء من السماء(السحاب) من الظواهر الطبيعية التي يعجب الإنسان لها عند القراءة المتأنية في معالمها وجوانبها ككل، وهي من سنن الله الكونية التي إن شاء أمضاها أو أمسكها وإن انجلت الدلائل العظام على وجودها وقرب نزولها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى عند النظر في المطر من البدء(بخار) وحتى يصير سحابا يبسطه الله في جو السماء كيف يشاء أو يجعله قطعا ثقيلة متفرقة أفقيا أو رأسيا، ثم يؤلف الله بينه فيجعله ركاما؛ يرى الإنسان العجب العجاب، الأمر الذي بدوره يدل على سعة علم الله، وطلاقة قدرته في تلك الدورة برمتها، حيث (إن ربع الأرض يابس والثلاثة أرباع الأخرى عبارة عن ماء)[١] تتمثل في البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات والآبار والعيون والأودية...إلخ والتي تتعرض دائما لحرارة الشمس على مدار العام ويكأن الماء كله في قِدْرٍ عظيم (لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان في تقطيراته التافهة، ولكن يسخن من فوق بنار قدر نار الأرض آلاف المرات)[٢]، الأمر الذي بدوره يجعل البخار ينضح من الماء ويصعد إلى أعلى عن طريق الرياح حتى يصل إلى قدر معين من الكيلو مترات والتي عندها يتكاتف ليكوّن السحاب، ومن هنا يجب على الجميع أن يسأل من الذي أرسل تلك الرياح وكلفها بحمل البخار؟، ومن الذي أمر البخار بالصعود دون الهبوط مخالفا في ذلك قانون الطبيعة العام أو ما يسمى بالجاذبية الأرضية؟، ومن الذي ملأ طبقات الجو العليا بالغبار والأيونات ليتكاثف حولها البخار؟.....إلخ.

(١) الإسلام في عصر العلم، أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ص (٤١٠) مرجع سابق.
(٢) المرجع السابق، ص (٤١٠).

الجواب: لا شك أنه الله-Ψ- القائل في كتابه: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ)[١] حيث (أَفَادَتْ صِيغَةُ الْحَصْرِ بِقَوْلِهِ: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ؛ أَنه هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي هَذَا الشَّأْنِ الْعَجِيبِ دُونَ غَيْرِهِ، وَكَفَى بِهَذَا إِبْطَالًا لِإِلَهِيَّةِ الْأَصْنَامِ، لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ مِثْلَ هَذَا الصُّنْعِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ التَّصَرُّفَاتِ فِي شؤون نَفْعِ الْبَشَرِ، وَالتَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي: يُرْسِلُ، فَتُثِيرُ، فَيَبْسُطُهُ، يَجْعَلُهُ؛ لِاسْتِحْضَارِ الصُّوَرِ الْعَجِيبَةِ فِي تِلْكَ التَّصَرُّفَاتِ حَتَّى كَأَنَّ السَّامِعَ يُشَاهِدُ تَكْوِينَهَا)[٢]؛ لأن البخار يكون في حالة خفاء تام بعد ارتفاعه إلى أعلى، والقطرات لا تتكون دفعة واحدة أو بمجرد صعود البخار وفقط بل (لا بد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما في الهواء العلوي.

الأول: أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار، وكل هواء يكفي في زيادة تشبعه أن يبرد تبريدا كافيا، ويتم هذا التبريد عن طريق المناطق العلوية من الجو أو الجبال الشامخات[٣]، وقلة الضغط في تلك المناطق، والاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية. الثاني: أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار.

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفي وحده في تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما، بخلاف ما إذا كان في الهواء ما يتكاثف حوله كالغبار، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع، وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء وإلا لعزّ تكون السحاب، ولاقتصر على المناطق التي يكثر في أجوائها العليا الغبار، لكن الذي قدر الأشياء، وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار في أعالي الجو أشياء أخرى، هي الذرات والجزيئات الغازية المجهرية الموجبة أو السالبة)[٤].

(١) سورة الروم، جزء من آية رقم(٤٨). ويراجع: الأعراف ٥٧، فاطر: ٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ج(١٢١/٢١ وما بعدها) مرجع سابق.
(٣) قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) المرسلات (٢٧).
(٤) انظر: الإسلام في عصر العلم، أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ص (٣٩٣، ٣٩٦) مرجع سابق.

كما أفادت الآية الكريمة في قوله: ("فَتُثِيرُ سَحَابًا" إظهار التكوين أي تسبيب التكاثف، وذلك لأن السحاب عبارة عن بخار في الهواء غير المشبع أو في الهواء فوق المشبع الخالي من الأيونات أو الغبار، ثم ظهر بالتكاثف لما انقلبت حالة الهواء من حيث التشبع أو من حيث نسبة الأيونات فيه، ولن يكون هذا الانقلاب إلا بفعل الرياح سواء أكان ذلك بحملها البخار إلى المناطق الباردة العلوية، أو بحملها الغبار والأيونات إلى تلك المناطق، وفي هذا دليل على أن المراد بإثارة الرياح للسحاب هو أثر الرياح في تكوين السحاب لا في نقله)[١].

هذا... وبعد ما سلف ذكره من تكاثف للبخار في الهواء فوق المشبع حول هذه الذرات وهذا الغبار أصبح لدينا العديد من السحب البساطية أو الركامية المتفرقة إلا إنها غير قابلة للنزول كمطر؛ لعدم نضجها أو اكتمال دورتها بعد، حيث إن البعض منها يحتوي على شحنات كهربائية موجبة والبعض الآخر يحمل شحنات كهربائية سالبة، ومن ثم تأتي معجزة إلهية أخرى لتكشف للناس مدى الدقة في هذا النظام المحكم الذي يسير وفق إرادة الله تعالى القادر المقتدر الرحيم، تكمن في قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)[٢].

فإن مصطلح "لَوَاقِحَ" يبين بوضوح (أن الله يسوق السحاب بالرياح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قربا كافيا في اتجاه أفقي أو رأسي أو فيما شاء الله من الاتجاهات، فإذا اقتربا تجاذبا، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما بهدوء، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية هي البرق الذي كثيرا ما يرى في البلاد الكثيرة الأمطار، والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي، سواء حدث في هدوء أو بالإبريق)[٣].

وبعد هذا الاتحاد والتلاصق بين السحب ذات الشحنات الكهربائية المختلفة يكون على إثرها المطر والذي يختلف اختلافا ملحوظا من آن

(١) انظر: المرجع السابق، ص(٣٩٣، ٣٩٦).
(٢) سورة الحجر، آية رقم(٢٢).
(٣) انظر: الإسلام في عصر العلم، أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ص(٣٩٧ وما بعدها) مرجع سابق. وبمثل هذا ذهب بعض المفسرين قديما وحديثا دون ذكر للجانب العلمي الحديث. انظر: مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(١٣٤/١٩) مرجع سابق.

لآخر أو من مكان لآخر في القلة والكثرة أو الخفة والشدة ويكون ذلك حسب القرب أو البعد من خط الاستواء أو القطبين الجنوبي والشمالي أو المناطق العالية ناهيك عن القدرة الإلهية، فقد يؤلف الله بينه حتى يكون كالجبال فيها من برد، ونخلص هذا من قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)[1].

فلفظ الجبال في تلك الآية لا يحتمل إلا معنى العظم على وجه التشبيه البليغ للسحاب الركام، أو للبرد المتجمع في السحاب قبل النزول، فإن كانت السماء في الآية معناها المطر، كانت "من" الأولى للتبعيض، و "من" الثانية لابتداء الغاية، ويكون معنى "من جبال" من سحاب كالجبال في العظم، ويكون "فيها من برد" وصفا للسحاب.

لكن إذا أخذت "من" في قوله: "من جبال" على التبعيض كان الضمير في "فيها" راجعا إلى السماء بمعنى السحاب المرتفع وكانت "من" في "من برد" للبيان، فالمشبه بالجبال في العظم هو مجموع البرد وما يتخلله في السحاب قبل نزوله، هذه كلها معان كل منها آية من آيات القدرة الإلهية[2].

وبعد هذا العرض الموجز لنشأة المطر الجيد المفعم بالماء العذب الفرات السائغ شرابه تتدخل المشيئة الإلهية فتسوقه كيف شاءت؛ وذلك لإصلاح الحال والمعاش، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)[3]، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)[4]، وورد في الصحيح أن النبي-ﷺ- قال: "بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ،

(١) سورة النور، آية رقم(٤٣).
(٢) انظر: الإسلام في عصر العلم، أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ص(٣٥٧، ٣٦١).
(٣) سورة الأعراف، جزء من آية رقم(٥٧). ويراجع: فاطر ٩.
(٤) سورة الحج، آية رقم(٦٣).

فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ - لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ - فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ "[1]، وإن كان غير ذلك فـ (فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)، وهذا يؤكد دلائل القدرة الإلهية وحكمة الله في إدارة هذه السنن؛ لأنها تشبه النعم والإحسان في بعض المواطن، والنقم والعذاب الشديد في مواطن أخرى.

بل ومن حكمته وقدرته أيضا في تلك الآية الكونية العجيبة والتي لا ينتهي عجائبها عند هذا الحد بل وعلى مدار الحقب التاريخية المتوالية وإلى قيام الساعة، خلق الشيء وضده في آن واحد؛ لأن (السَّحَابَ لَا شَكَّ جِسْمٌ مركب فِي أَجْزَاءٍ رَطْبَةٍ مَائِيَّةٍ، وَمِنْ أَجْزَاءٍ هَوَائِيَّةٍ وَنَارِيَّةٍ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ الْأَجْزَاءُ الْمَائِيَّةُ، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يَابِسٌ، وَظُهُورُ الضِّدِّ مِنَ الضِّدِّ التَّامِّ عَلَى خِلَافِ الْعَقْلِ، فَلَا بُدَّ مِنْ صَانِعٍ مُخْتَارٍ يُظْهِرُ الضِّدَّ مِنَ الضِّدِّ)[2].

المطلب الثاني: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الأنفس.

أشرت في غير هذا العنصر(المطلب المنصرم) إلى أن الله أودع في الآفاق والأنفس العديد من الآيات العجيبة للدلالة على كمال صنعته، وعظيم قدرته، ووافر رحمته بخلقه، وجميل مشيئته في تنسيق وإدارة هذا الكون بما يشتمل عليه من شمس وقمر ونجوم وشجر وجبال وأنهار ودواب بل وإنسان....إلخ ويخلق ما لا تعلمون، فضلا عن وجوده فقال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[3].

وبعد إجلاء الآثار الناتجة عن الدلالات العقلية عند التعرض لبعض النماذج المتصلة بهذا الكون الشاسع آن لنا أن نتعرض للشق

(١) صحيح الإمام مسلم، كِتَابُ: الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ: الصَّدَقَةِ فِي الْمَسَاكِينِ، ج(٤/٢٢٨٨)، ح ر (٢٩٨٤) مرجع سابق.
(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(١٩/٢١) مرجع سابق.
(٣) سورة الذاريات، الآيتان رقم(٢٠ وما بعدها). ويراجع: فصلت ٥٣.

الآخر(الإنسان) لتأكيد ما أوضحناه سالفا من آثار تؤكد كمال الصفات الإلهية وطلاقة قدرة الإله، ولن أتطرق إلى الآيات الربانية العجيبة التي تتصل بالإنسان منذ تكوينه في رحم أمه بدءا من نطفة أمشاج، علقة، مضغة، عظاما، كسوة العظام باللحم، نفخ الروح، أو ما يشتمل عليه من أجزاء خارجية(سمع، بصر، أنف، فم، أذن، جلد...إلخ) أو داخلية(الرئتين، الكبد، الكلى، القلب، القناة الهضمية، الجهاز العصبي والتنفسي، .....إلخ)[1] حيث إن كل آية مما سلف ذكره تحتوي في نفسها على العديد من الآيات الدالة على عظيم قدرة الله في خلقه، ولكن أكتفي ببيان: **قدرة الله على خرق النواميس والعادات.**

إن الذي يتلو الآيات القرآنية ويدرسها بعين التدقيق والتدبر أدرك أن الله أجرى المسببات على أسبابها، فلن يكون رزق دون سعي في فجاج الأرض والضرب في مناكبها آخذين بالأسباب للحصول عليه فقال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) رغم أنه تكفل بأرزاق العباد، فقال تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)[2]، ولن يكون ولد إلا باجتماع كل من الذكر والأنثى، فقال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)[3]، وقال أيضا: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)[4]، ناهيك عن انتفاء كل موانع

(١) هناك العديد من الأبحاث العلمية التي تحدثت عن تلك الآيات بالتفصيل وأوضحت القدرة الإلهية في خلق الإنسان، وقد جمع بعضها د/ محمد أحمد عبدالكريم عبد العال في رسالته الماجستير الموسومة بـ "الآيات الإنسانية عند الإمام ابن القيم في ضوء العلم الحديث"، تحت إشراف: أ.د/ مصطفى أحمد أبو سمك، أ.د/ معاذ عبدالله أبو غزالة، الفصل الأول المعنون بـ: آيات الله الحسية في الكيان الإنساني عند الإمام ابن القيم في ضوء العلم الحديث، المبحث الأول: الآيات الإنسانية عند الإمام ابن القيم في الأعضاء الخارجية للكيان الإنساني ص(٣٩، ١٣٤)، المبحث الثاني: الآيات الإنسانية عند الإمام ابن القيم في الأجهزة الداخلية للكيان الإنساني ص(١٣٥، ١٩٤) فلتراجع.

(٢) سورة الذاريات، آية رقم(٢٢ وما بعدها).

(٣) سورة النحل، آية رقم(٧٢).

(٤) سورة الإنسان، جزء من آية رقم(٢).

الحمل والإنجاب كالكبر والوهن، والمرض، والعقم، واستئصال الرحم، وربط قناة فالوب...إلخ.

ولكن إذا تدخلت القدرة الإلهية فلا يصح لأي إنسان أن يسأل عن السبب أو أن يستفهم عن كيفية الحدث أو الحصول، بل لا بد من التسليم المطلق لقدرة الله فيما نعلم وما لا نعلم فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن فيكون، فهو الذي خلق الأسباب فإن شاء أجراها وإن شاء أمسكها وأوقفها عن العمل، قال تعالى: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)[١].

ومن ثم فإن الناظر في واقع البشرية وخاصة ما أطلعنا الله عليه في محكم التنزيل، وأوضح فيه أن أمورا قد تحدث على غير العادة كمن وُلِدَ له ولد بغير أب، ومن رزق بالولد بعد ما بلغ من الكبر عتيا، ولم يكن هذا فحسب بل كانت امرأته عاقرا، فضلا عن بلوغها سن اليأس أي لا تحيض رغم أن (الأصل في الذرية أنها تأتي من اجتماع الذكر والأنثى، هذا هو القانون، ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله؛ لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتي الذرية؛ لأنه ليس القانون هو الذي يخلق، ولكنها إرادة خالق القانون، إن شاء جعله يعمل، وإن شاء أبطل عمله والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ولكنه هو الذي يحكمها.

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل، فهو قادر على أن يخرق القوانين، خذ مثلا قصة زكريا-ט- كان يكفل مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها، وسألها وهي القديسة العابدة الملازمة لمحرابها "يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا"[٢] بماذا ردت مريم-عليها السلام-؟ "قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"[٣].

(١) سورة الصافات، الآيات رقم(٦٨، ٧١).
(٢) سورة آل عمران، جزء من آية رقم(٣٧).
(٣) سورة آل عمران، جزء من آية رقم(٣٧).

إذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون، لقد لفتت مريم زكريا-ʊ- إلى طلاقة القدرة، فدعا زكريا-عليه السلام- ربه في قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة، فهو رجل عجوز، وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولدا، هذه قضية ضد قوانين الكون؛ لأن الإنجاب لا يتم إلا وقت الشباب، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان، فما بالك إذا كانت الزوجة أساسا عاقرا، لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب، فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز؟ هذه مسألة ضد القوانين التي تحكم البشر، ولكن الله وحده القادر على أن يأتي بالقانون وضده ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان، ورزق زكريا بابنه يحيى-عليه السلام-)[1].

وبناء على ما سبق تبين أن سيدنا زكريا-ʊ- دعا ربه ليحقق له أمرا على غير العادة المعهودة لدى البشر فاستجاب الله دعاءه، ومن قبله كان سيدنا إبراهيم-عليه السلام- حيث يقول الله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)[2].

(١) انظر: تفسير الشعراوي "الخواطر"، تأليف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، ط: مطابع أخبار اليوم، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ج (٤٥/١ وما بعدها). ويراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى(١٤١٨هـ)، ج(١٥/٢ وما بعدها).
(٢) سورة الذاريات، الآيات رقم(٢٤، ٣٠).

المبحث الرابع

أثر الدلالات القرآنية العقلية

في إثبات كمال قدرة الله على إيجاد اليوم الآخر.

الحديث عن اليوم الآخر من الأهمية بمكان، وخاصة إذا كان إثبات هذا اليوم قائما على البديهيات العقلية والتي تترك أثرا في النفوس بأن الله قادر مقتدر؛ لأن الذي خلق السماوات الأرض وأبدعهما على غير مثال سابق، فضلا عما تم تقريره بالعلوم الفلكية الحديثة في المطلب الأول من المبحث الثاني وهو التمدد اللانهائي لهذا الكون، يفوق الإنسان بمراحل مديدة في الخلق؛ ومن هنا يمكن إثبات طلاقة القدرة الإلهية على إيجاد اليوم الآخر من خلال الآثار المترتبة على الدلالات القرآنية العقلية التالية:

١. النموذج الأول: قياس الأولى.

لقد ساق الله العديد من الأقيسة العقلية أذكر منها ما نحن بصدده الآن والتي نبّهتْ القلوب إلى حقيقة يسلم بها الجميع(المؤمن والكافر)؛ لأنها ليست ببعيدة عن أنظار الموضوعيين من ناحية، أو خفية عن ذوي العقول السليمة، والفكر القويم، والرأي السديد من ناحية أخرى، فقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[١]، فإن تلك الآية الكريمة تشير إلى أن الله-Y- (لَمَّا قَدَرَ عَلَى الْأَقْوَى الْأَكْمَلِ فَبِأَنْ يَقْدِرَ عَلَى الْأَقَلِّ الْأَرْذَلِ كَانَ أَوْلَى، وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ عَاقِلٌ الْبَتَّةَ، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يُسَلِّمُونَ أَنَّ خالق السموات وَالْأَرْضِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَعْلَمُونَ بِالضَّرُورَةِ أن خلق السموات وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَكَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يُقِرُّوا بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ السموات وَالْأَرْضِ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي خَلَقَهُ أَوَّلًا)[٢].

وكثيرا ما كان الله-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يحث عباده الذين ينكرون البعث والإعادة مرة أخرى بعد الموت والفناء على النظر في الآفاق لاشتماله

(١) سورة غافر، آية رقم(٥٧).
(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(٥٢٦/٢٧) مرجع سابق.

على أمور تبلغ حدا في الكثرة لا غرو هي أكبر من خلق الإنسان، وأشد قوة؛ ومن ثم فإنها تفضي إلى التأمل والذكر، لأنه مهما بلغ من قوة فلن يخرق الأرض، ومن قامة فلن يبلغ الجبال طولا، ليعلم أن الذي خلق تلك الأشياء ابتداء من لا شيء، ولم يصبه إعياء أو تعب، ولم يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء بقادر على خلق الأقل منهم من حيث الضعف، فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١).

فـ (الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِقَامَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِهِ تَعَالَى قَادِرًا عَلَى الْبَعْثِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى أَقَامَ الدَّلَائِلَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَا شَكَّ أَنَّ خَلْقَهَا أَعْظَمُ وَأَفْخَمُ مِنْ إِعَادَةِ هَذَا الشَّخْصِ حَيًّا بَعْدَ أَنْ صَارَ مَيِّتًا، وَالْقَادِرُ على الأقوى الأكمل لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْأَقَلِّ وَالْأَضْعَفِ، ثُمَّ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ أَنَّ تَعَلُّقَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا فِي نَفْسِهِ لَمَا وَقَعَ أَوَّلًا، وَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، فَوَجَبَ كَوْنُهُ قَادِرًا عَلَى تِلْكَ الْإِعَادَةِ، وَهَذِهِ الدَّلَائِلُ يَقِينِيَّةٌ ظَاهِرَة)(٢).

٢. النموذج الثاني: الاستدلال بالنشأة الأولى.

إن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إيجاده مرة أخرى وإن مات وأرم، واعتراه البلاء والفناء، لوجوده بالفعل، وغاية ما تم حدوثه هو مفارقة الروح للجسد فقط، ولذا ذكّر ربنا-I- الإنسان بهذه الحقيقة وإن كانت غائبة عن ذهنه لبعض الوقت، فقال تعالى: (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)(٣) والمراد بالإنسان هو (الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت أخرج حيا، فأبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء إنكارا منه ذلك، يقول الله تعالى ذكره: "أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ" المتعجب من ذلك المنكر قدرة الله على إحيائه بعد فنائه، وإيجاده بعد عدمه في خلق نفسه، أن الله خلقه من قبل مماته،

(١) سورة الأحقاف، آية رقم(٣٣). ويراجع: الروم ٢٥، ٢٧.
(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ج(٣٠/٢٨) مرجع سابق.
(٣) سورة مريم، الآيتان رقم(٦٦، ٦٨). ويراجع: الأعراف ٣٠. يس ٧٧، ٨٣. ق ١٥.

فأنشأه بشرًا سويا من غير شيء "وَلَمْ يَكُ" من قبل إنشائه إياه "شَيْئًا" فيعتبر بذلك ويعلم أن من أنشأه من غير شيء لا يعجز عن إحيائه بعد مماته، وإيجاده بعد فنائه)[1].

ونظير هذا في القرآن الكريم كثير كقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ)[2] فقد ابتدأت الآية الكريمة بصيغة الاستفهام فتقول لهم: (هل إذا باشرتم وأنزلتم وانعقد الولد، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخلق هاهنا: التصوير أي: أأنتم تجمعون صور المولود وتركّبون أعضاءه أم نحن؟.

وهم كانوا يقرّون بالنشأة الأولى فاحتجّ بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه، وهذه الآية أصل في إثبات الصانع فإن أصل خلقة الإنسان من قطرتين: قطرة من صلب الأب وهو المني، وقطرة من تريبة الأم، وتجتمع القطرتان في الرّحم فيصير الولد، وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العظم والعصب والعرق والجلد والشّعر، ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يشكّل كل عضو بشكل خاص، والعظام بكيفية خاصة إلى غير ذلك.

وليس يخلو إمّا أن يكون الأبوان يصنعانه وذلك التقدير محال لتقاصر علمهما وقدرتهما عن ذلك وتمنّيهما الولد ثم لا يكون، وكراهتهما الولد ثم يكون! والنّطفة أو القطرة محال تقدير فعلها في نفسها على هذه الصورة لكونها من الأموات بعد، ولا علم لها ولا قدرة، أو من غير صانع

(١) تفسير الإمام ابن جرير الطبري، ج(٢٢٧/١٨) مرجع سابق. وقيل نزلت هذه الآيات وأختها في سورة يس في: أبي بن خلف، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل العاص بن وائل، وقيل: أبي جهل. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تأليف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، ط: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة(١٤٠٧هـ)، ج(٤/ ٣٠). الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثانية(١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، ج(١١/ ١٣١).

(٢) سورة الواقعة، الآيات رقم(٥٨، ٦٢).

وبالضرورة يعلم أنه لا يجوز، فلم يبق إلّا أن الصانع القديم الملك العليم هو الخالق)[١].

٣. النموذج الثالث: دليل المشاهدة.

عند تلاوة القرآن الكريم مرة تلو الأخرى يقف الإنسان أمام محاكمات عقلية في غاية الجمال والجلال، فيجدها قائمة على المشاهدة، يبين الله فيها أن الذي أخرج بقدرته النبات والتي كان في الأصل عبارة عن بذور لا حياة فيها من أرض موات فكذلك قادر على إعادة الحياة للموتى مرة ثانية للنشر والحشر والحساب، فقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[٢].

فإن ("كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى" الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات، نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس، "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا)[٣].

وأخيرا أختم ما سبق بيانه بقول الله تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٤]، وقوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)[٥].

(١) تفسير الإمام القشيري، ج(٥٢٢/٣) مرجع سابق. يراجع: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تأليف: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط: المكتبة الأزهرية للتراث – مصر، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ص(٢٤). فضائح الباطنية، تأليف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ط: مؤسسة دار الكتب الثقافية – الكويت، بدون رقم للطبعة وتاريخ، ص(٤٨، ٥٠).

(٢) سورة الأعراف، آية رقم(٥٧). ويراجع: البقرة ٢٥٩، ٢٦٠. فاطر ٩. الأنعام ٦٠.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي، ج(١٧/٣) مرجع سابق.

(٤) سورة الروم، آية رقم(٥٠).

(٥) سورة القيامة، الآيات رقم(٣٦، ٤٠).

هذا... وبعد العرض الموجز للآثار التي خلفتها الدلالات القرآنية العقلية في مجال الألوهية، أقول: فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من نقص وزلل فمني ومن الشيطان، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الخاتمة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" الحمد لله في بدء وختم، وبعد...

فبعد دراسة موضوع "أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال الذات العلية -دراسة دعوية-" يطيب لي أن أسجل ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات، وهي كما يلي:

أولا: **النتائج**: من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي:

١. تبين من خلال البحث أن الوحدة الإلهية ثبتت بالعقل وإن كان الطريق الأوحد لها الوحي والسماع، وإبطال ما عداها من آلهة مصطنعة.

٢. ثبت بالبحث أن القرآن الكريم أشار بألفاظ قليلة، وجمل محدودة إلى بعض ما توصل إليه العلم الحديث بعد مروره بأطوار متعددة، مما يدل على أنه كلام الله.

٣. ثبت أن الإسلام ترك الأبواب مفتوحة على مصراعيها أمام العامة للتفكر في آيات الله المتصلة بالكون والإنسان.

٤. تبين أن العقل السليم والشرع متعاضدان ومتفقان.

٥. ثبت بالبحث أن كل كمال يليق بالذات الإلهية، ونقص وعجز ما سواها من الذوات الأخرى.

ثانيا: **التوصيات**: من أهم التوصيات التي يجب التنبيه إليها ما يلي:

١. أوصي الباحثين عن الحق الموضوعيين في كل زمان ومكان بإعمال العقل وأن يتجردوا من العصبية واتباع الهوى.

٢. أوصي الدعاة على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم استخدام المنهج العقلي في بيان العقيدة الإسلامية، وبيان الأثر المترتب عليه وخاصة عند مجادلة الملحدين الذين ينكرون وجود الله، والغيبيات المتصلة بالشريعة الإسلامية كاليوم الآخر بما فيه.

٣. أوصي الباحثين بالوقوف والاطلاع على كل اكتشاف جديد توصل إليه العلم، ودراسته دراسة وافية في ضوء الكتاب والسنة للربط بينهما.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف: عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة الأولى(١٤١٨هـ).
٢. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للإمام أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، تحقيق: أبي عبدالرحمن عادل بن سعيد، وأبي إسحاق السيد محمود بن إسماعيل، ط: مكتبة الرشد-الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
٣. إحياء علوم الدين، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(المتوفى: ٥٠٥هـ)، ط: دار المعرفة – بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تأليف: أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ للطبعة ورقم.
٥. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، تأليف: أ.د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٩٥١/ ٥ وتاريخ ١٤٠٦/٨/٥، الطبعة الأولى(١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).
٦. الأذكياء، تأليف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي(المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني، ط: دار الجفاني والجابي ودار ابن حزم، الطبعة الأولى(١٤٢٤هـ).
٧. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي

(المتوفى: ٧٣٩هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٨. الإسلام في عصر العلم، تأليف أ.د/ محمد أحمد الغمراوي، ط: دار الكتب الحديثة –مصر-، بدون رقم للطبعة(١٩٧٨).

٩. الاعتصام، تأليف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

١٠. التحرير والتنوير ، تأليف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر(١٩٨٤هـ).

١١. التعريفات، تأليف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ط: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٢. التَّفْسِيرُ البَسِيْط، تأليف: أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في ١٥ رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، ط: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ).

١٣. التقرير والتحبير في شرح التحرير، تأليف: أبي عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج ويقال له ابن الموقت الحنفي(المتوفى: ٨٧٩هـ)، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية(١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٤. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تأليف: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط: المكتبة الأزهرية للتراث – مصر، بدون رقم للطبعة وتاريخ.

١٥. التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي القاهري(المتوفى: ١٠٣١هـ)، ط: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة الأولى(١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
١٦. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثانية(١٣٨هـ /١٩٦٤م).
١٧. السنن الكبرى للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي (٣٠٣هـ)، قدم له: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، أشرف عليه: شعيب الأرنؤوط، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبدالمنعم شلبي، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠١م).
١٨. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية(المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ط: دار العاصمة-الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ).
١٩. العدة في أصول الفقه، تأليف : القاضي أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء(المتوفى : ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه: د أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض، جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، ط : بدون، الطبعة الثانية (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
٢٠. الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، تأليف: ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي(المتوفى: ٨٢٦هـ)، تحقيق: محمد تامر حجازي، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى(١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
٢١. الفصول في الأصول، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، ط: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢٢. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تأليف: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٢٣. الكون في فكر الإنسان قديماً وحديثاً، المؤلف د: أحمد مدحت إسلام، ط: دار الفكر العربي بالقاهرة- الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٤. الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، المؤلف: د/ محمد منصور حسب النبي، ط: دار الفكر العربي- القاهرة– مصر- بدون رقم للطبعة(١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
٢٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى(١٤٢٢هـ).
٢٦. المحصول، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري(المتوفى: ٦٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
٢٧. المدخل إلى علم الدعوة للدكتور/ محمد الفتح البيانوني، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثالثة(١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
٢٨. المستدرك على الصحيحين، تأليف: أبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى(١٤١١ه/١٩٩٠م).
٢٩. مستشرقون في علم الآثار، تأليف: محمد الأسعد، ط: الدار العربية للعلوم بيروت، سنة(٢٠١٠م).

٣٠. المستصفى في علم الأصول، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى(١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٣١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -ρ-، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، ط: المكتبة العلمية، بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٣٣. المصنف تأليف: عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى(٢١١هـ)، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، ط: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ/٢٠١٥م).
٣٤. المعجم الوسيط، تأليف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار)، ط: دار الدعوة، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٣٥. المغني، تأليف: أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى(١٤٠٥هـ).
٣٦. المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى(١٤١٢هـ).
٣٧. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تأليف: أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية(١٣٩٢هـ).

٣٨. الموافقات، تأليف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى(١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٣٩. تفسير الشعراوي "الخواطر"، تأليف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، ط: مطابع أخبار اليوم، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٤٠. تفسير الجلالين المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ط: دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
٤١. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس(المتوفى: ٦٨هـ)، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، ط: دار الكتب العلمية – لبنان، بدون رقم للطبعة وتاريخ.
٤٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤٣. جامع البيان في تأويل القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤٤. سنن ابن ماجه (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م).
٤٥. سنن أبي داود، تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ط: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

٤٦. شرح صحيح البخاري، تأليف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك(المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط: مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية(١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).
٤٧. صحيح الإمام البخاري(المتوفى: ٢٥٦هـ)، ط: دار الشعب القاهرة، الطبعة الأولى(١٩٨٧م).
٤٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، ط: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة الأولى(١٣٥٦م).
٤٩. قصة الحضارة، تأليف: وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت(المتوفى: ١٩٨١م)، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، ط: دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر(١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
٥٠. لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى(المتوفى: ٧١١هـ)، ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ).
٥١. لطائف الإشارات = تفسير القشيري، تأليف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
٥٢. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: أبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة، بدون رقم للطبعة(١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
٥٣. مذاهب فكرية معاصرة، تأليف: محمد بن قطب بن إبراهيم، ط: دار الشروق، الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٥٤. معارج القدس في مدراج معرفة النفس، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(المتوفى: ٥٠٥هـ)، ط: دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية(١٩٧٥م).

٥٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن(تفسير البغوي)، تأليف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي(المتوفى: ٥١٠هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة(١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٥٦. معاني القرآن وإعرابه، تأليف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى(١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٥٧. معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، ط: عالم الكتب، الطبعة الأولى(١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

٥٨. معجم مقاييس اللغة للإمام أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، الطبعة (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٥٩. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، تأليف: أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، : دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة(١٤٢٠هـ).

٦٠. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم للطبعة وتاريخ.

٦١. مقال لفضيلة الأستاذ الدكتور/ بكر زكي عوض، في مجلة منبر الإسلام، السنة ٦٤، العدد ١١، ذو العقدة ١٤٢٦هـ، ديسمبر ٢٠٠٥م، ص(٨٨، ٩٠).

٦٢. مناهج البحث العلمي، عبدالرحمن بدوي، ط: وكالة المطبوعات، شارع فهد السالم، الكويت، الطبعة الثالثة (١٩٧٧م).
٦٣. هذا خلق الله، المؤلف: د/ جمال الدين الفندي، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد: ٢٤، السنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٦٤. هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم، د/عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط: تهامة -جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

فهرس الموضوعات

الموضوع
المقدمة.
أهمية الدراسة.
تساؤلات الدراسة.
إشكاليات الدراسة.
أسباب اختيار الموضوع.
الدراسات السابقة.
منهج البحث.
أهداف البحث.
خطة البحث.
التمهيد.
المبحث الأول: العقل ومنزلته ومكانته وحظه في الإسلام.
المطلب الأول: منزلة العقل ومكانته وسبل المحافظة عليه.
المطلب الثاني: حظ العقل في الإسلام.
المبحث الثاني: أثر الدلالات القرآنية تنزيلا العقلية إقناعا في إفحام المدعو المعاند وإبطال الألوهية المزعومة من خلال دعوة الأنبياء.
المطلب الأول: دعوة سيدنا إبراهيم-υ-.
المطلب الثاني: دعوة سيدنا محمد-ρ-.
المبحث الثالث: أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال الذات الإلهية من خلال الآفاق والأنفس.
المطلب الأول: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الآفاق.
المطلب الثاني: أثر الدلالات القرآنية العقلية من خلال الأنفس.
المبحث الرابع: أثر الدلالات القرآنية العقلية في إثبات كمال قدرة الله على إيجاد اليوم الآخر.

الخاتمة: وتشتمل على النتائج والتوصيات.
المصادر والمراجع.
فهرس الموضوعات.